

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



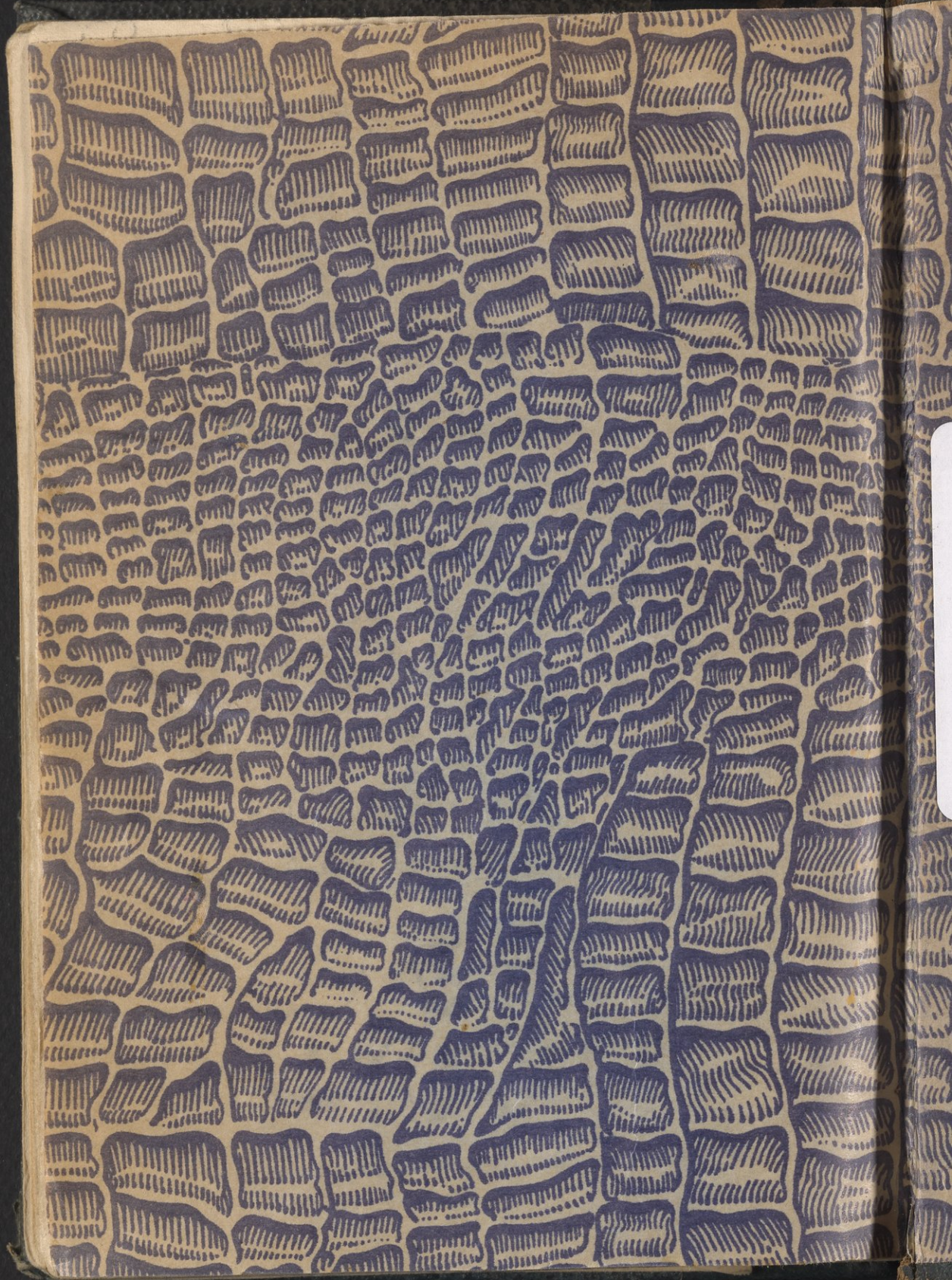
3 8534 01034 4343

Library of
The American University
at Cairo

is the man that
geth wisdom and
man that getteth
understanding .+ .+.+

PROVERBS 3-13

libris datis
in memoriam
James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania



04-35386



إذا كنت قد زعمت أن من سهل الأمور وأمتعها
أن تكون ملكاً : إنك إذن لمن أشد المخطئين .

من لوريس الرابع عشر
إلى فيليب الخامس

تالله ، إن الملك ليرضى بالنزول عن نساء الأرض
وغوانها ، مقابل قصور فرساي ومغانها . . .
من رسائل دي بومسي باربوتانه

لو أنه لم يخلق ملكاً لاوتى مع ذلك تذوق السمرات
والمسرات ، ولأحدث في ساحات الحب أشد المرح والمرج . . .
ساده سيمونه

قيل للحجاج : أيمزح الأمير أهله؟ .. قال : ماترونى
إلا شيطاناً . . . والله لربما قبلت أنخص قدم إحداهن . . .

عمر بن عبد القادر
قلوب

للمؤلف

مدرسة النبوغ

| | | | |
|--------|---|--|------------------|
| الناشر | } | (حياة مدام كورى) | التلميذة الخالدة |
| | | (القصصى الأعظم) | حياة بلزك |
| | | (قبور فى جنة الحب) | حياة شلى |
| | | (دون جوان) | حياة بيرون |
| | | (حياة لويس الرابع عشر) | عرش وقلب |

مدرسة المجتمع

الناشر

مطبعة

المعارف

ومكتبتها

بمصر

| | | | |
|---------------|---|--------|------------------------|
| مطبعة | } | | أنا الشرق |
| | | | رجال ونساء (١) |
| | | | » » (٢) |
| | | | حياة قلب |
| | | | الموجة العذراء |
| مطبعة المعارف | } | | المرأة لعبتها الرجل |
| | | | شباب الفولجا |
| | | | جرائم شرقية وغربية |
| | | | العاصية أو كتاب الغيرة |
| | | | غانيات |

مدرسة الحرب والسياسة

| | | | |
|-------|---|--------|---------------------------|
| مطبعة | } | | مأساة فرنسا |
| | | | أسرار انهيار أوروبا |
| | | | الرقص على البارود |
| | | | الوحش الأصفر والذب الأحمر |
| | | | الطابور الأول |

| | | | |
|--------|-----------------|--------|----------------------|
| نفدت | } | | باريس |
| | | | ماقل ودل (فى جزين) |
| | | | تاييس |
| | | | الزنبقة الحمراء |
| | | | أفروديت |
| | فى الحياة والحب | | |

بتكليف من وزارة المعارف العمومية
 طرطوف }
 عدو المجتمع

عييد الذهب .. أخرجتها الفرقة القومية بدار الأوبرا الملكية

بالفرنسية ... (باريس ١٩٢٨)

٥
احمد الصاوي محمد

DC
129
M8



علينا ، إذا ما أسلنا قلوبنا أن نظل
مسيطرين تماماً على عقولنا .
لويس الرابع عشر

١
عرش وقلب



ملتزم النشر

مطبعة المعارف وكتبتها بمصر

923/1
L 9295
Mck

٩٥٣، ١٤٤
ص. ع

بعض المراجع

| | |
|--------------------------|--|
| Louis Bertrand | <i>Louis XIV</i> |
| Louis Bertrand | <i>La Vie Amoureuse de Louis XIV</i> |
| St. Georges de Bouhélier | <i>Le Roi-Soleil</i> |
| Michel Glenne | <i>The Loves of Louis XIV</i> |
| Saint-Simon | <i>Mémoires</i> |
| Voltaire | <i>Le Siècle de Louis XIV</i> |
| Perkins | <i>France under Mazarin</i> |
| Arthur Hassal | <i>Mazarin</i> |
| F. Funck-Brentano | <i>Le Drame des Poisons</i> |
| Mme de Sévigné | <i>Lettres</i> |
| Louis XIV | <i>Les Pages Immortelles de...</i> (choisies et expliquées par G. Boissy) |

25536

الغلاف بريشة الفنان المغربي الشهير

اربيك دي مايتشي



الكتاب الأول

١

بدأ يحب ، ناسجاً على منوال أهل العصر ، أى على نسق الحب الشائع في تلك الأيام ، إذ يندر أن يحب المراهق أو الفتى حباً طبيعياً خالصاً . . . الحب عنده ، غالباً — ولا نقصد الاشتهاء — محاكاة وتقليد . ومهما يكن صادقاً في شغفه ، فسيمتزج دائماً بسداجة حبه ضرب من الاهتمام بموقفه إزاء تلك التي يحب . . . وهذا الموقف إنما يتكيف بما جرى به العرف في زمنه ، على ضوء المطالعات الذائعة ، واللباقات الشائعة . . .

هكذا أحب لويس الرابع عشر بادئاً ، تبعاً لقواعد الحب في عهده ، وطبقاً لنا موس المحيين . . .

ومن السهل وضع قائمة بأسماء فتوحاته الغرامية . فقد سجل المؤرخون لدون چوان الملك هذا غزوات كثيرة . إذا جئنا لأسمائها ، ضارين صفحاً عن تلك التي كانت تلو كها الألسن في البلاط ، رأينا : الكونتس دى بوفيه

المعروفة بأنها أول من حظى بانعطف الملك .. ثم مدموازيل دي لاموث
هُدَانِكُور .. ثم أولمپ مانشيني .. ثم أختها ماري مانشيني .. ثم مدموازيل
لويز دي لاڤالير .. ثم مدام دي مونتسپان .. ثم مدموازيل دي تيوبون ..
ثم مدام دي موناكو .. ثم مدام دي سوييز .. ثم مدموازيل دي لودر ..
ثم مدموازيل دي فونتاج .. ثم .. ثم ...

وحسبنا! .. فليس المضي في سرد الأسماء إلا عبثاً .. بيد أننا إذا
استثنينا أربع سيدات من هؤلاء ، أو خمساً ، فمن المستحيل القطع بأنهن
كن جميعاً محظيات للملك .. أما المقطوع به فهو أنه ميزهن عن غيرهن .
ولكن لا ندرى مدى ما ذهب إليه معهن في الهوى الأعظم .. فلندع
جانبا البدوات البسيطة ، والنزوات الطارئة ، ولنذهب رأساً إلى الأهم ..
فمن الموثوق به : أن لويس الرابع عشر أحب من قلبه ، طوال حياته ،
امرأتين اثنتين .. هما : ماري مانشيني ، ولويز دي لاڤالير . وثانيتها دون
الأولى يقيناً .. فتلك العاطفة الثانية لم تكن إلا إحياءاً للعاطفة الأولى ،
واستمراراً فيها ، وامتداداً لها .. فلنسلم إذن جدلاً بأن ماري مانشيني كانت
هي أول حب للملك .. وكانت : حبه الوحيد ...

* * *

بدأ ذلك في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٦ .

لويس في الثامنة عشرة . وماري دونه بقليل . الأدب تجارتهما : يقرآن
معاً آخر القصص والمآسي المشهورة ، ويتبادلان الرسائل القصيرة ،
والملاطفات الصغيرة .. ثم يتدرجان إلى الحديث المسطور ، الشجي ، الطويل .

تقول لنا ماري مانشيني ، في مذكراتها ، إنها لما كانت في « برواج » ،
كان الملك يرسل إليها مجلدات برمتها : « كان جلالته لا يفكر إلا في أن
يبعث إلى بريد ضخم ، مكون من خمس رسائل ، كل رسالة في عدة
صفحات » .

ولقد كانا يقضيان الليالي بطولها في التنزه والتغزل ، في ضوء القمر .
يركبان الخيل ، ويسيران ، جنباً إلى جنب ، في خلال الغابات الكثيفة ،
وعلى مدى الطرق الفسيحة ..

تلك كانت عاطفة فتيّة ، روائية ، يلعب دوره فيها كل من الخيال والصنعة
والمباهاة ، وإن كانت على هذا كله دائماً في اشتعال واضطراب ، وإن
ظلت أفلاطونية ، عذرية ، كما تقضى به شهامة أو أناقة تلك الأيام ! ..

وكان الملك ، في ذلك العهد ، شاباً قوياً مكيناً ، غليظ التقاطيع بعض
الشيء ، عيناه أجمل عينين في الدنيا .. نرى له لوحة تمثله في ذلك الوقت ،
وعلى محيّا سمة الوقار ، ويبدو مشغولاً ، إن لم يكن قلقاً .. كان قد صار
الرجل السياسي ، رئيس الدولة ، وقائد الجيوش الأعلى ، والذهن المنظم
المحقق ، الذي سيعرف ، حتى في عنفوان الهوى ، كيف يظل سيد
قلبه وفكره .

ونرى له صورة أخرى في ذلك الشمال النصفى ، الذي صنعه المثال
برنان ، وفيه من الشعر والمبالغة والمثالية ، ولكن فيه أيضاً التعبير الصادق
عن سطوة فذة ، عن الحالة النفسية التي كان عليها لويس يومئذ .. فجانب
محيّا « البروفيل » يشبه إلى حد غريب نابليون بونابرت في مثل سنه ،

نرى فيه ما يدل على الجسارة والسيادة ، ونقرأ ، في مقلتيه ، المحدجتين نحو
هدف محدد جذاب ، حلماً كاملاً بالمجد ، وتحت حنية ذلك الجبين ، وتحت
قوسى حاجبيه الأولمبيين ، تتجمع وتتجاذب ألوف الرؤى الشائقة .. لكن
الحيا يعبر عن شيء آخر يختلف عن هذا كله ، فالقم على شيء من السمن ،
يكشف عن اشتهاٍ وِرع ، كأنه ظمآن للقبل .. وطاقتا الأنف تخفقان ،
والعينان تسبحان في شوق وشبق ، والمحجران عليهما هالتا الصباية
القائمتان .. ولا شيء مثل هذا الوجه يدل على ضنّى يكاد يكون مؤلماً ،
ورغبة لا ينطفئ لها أوار .. هذا بعض ما يكشف عن العاشق الفتى ، الذى
هام بمارى مانشيني ولويز دى لاڤالير ..

أما مارى هذه ، فهى بنت أخت الكردينال مازاران ، فتاة إيطالية ،
سرعان ما تأقلمت فى فرنسا ، فى أقصر وقت .. تضاربت فى وصفها
الأقوال . ولكن لا نزاع فى أنها لم تكن جميلة . قسا عليها بعض المعاصرين
لها من المؤرخين ، فشبهها بخادمة فى حانة ، شبهها بخمارة ، ولم يدار أويبال .
فهى عنده دميمة ، غليظة ، قائمة ، زاعقة ، فالتة اللسان .. قد يقول قائل
إن هذا ، بلا ريب ، رأى هماز مشاء بنميم . لكننا نجد الملاحظة الدقيقة
المتعمقة تبديها مدام دى لاڤايت ، وليست دون ذلك قسوة على الموعودة
بأن تتربع على عرش قلب لويس الرابع عشر ، أعظم ملوك فرنسا : « إن
مدموازيل مارى مانشيني ليست على أى جمال . وليس لشخصها أية فتنة .
وليس لروحها من ذلك إلا أقل القليل .. على ما بها من تجاسر ، وتصميم ،

ومضاء، واندفاع، واستهتار، وضلال، وفجور: بلا كياسة، ولا لباقة،
ولا لياقة» .

ومع ذلك، فما أعجب الطبيعة التي تمنع، ثم تمنح!.. فقد جاء حين من
الدهر على هذه المخلوقة، القبيحة، الثقيلة، اكتسبت فيه ملاحظة وإغراء .
كان ذلك عند ما ألقى عليها غرام الملك سحراً . فتحولت العاطلة من كل
جمال، إلى خلافة ذات دلال!.. ووقف البلاط مندهشاً إزاء تلك «الخجارة»
الممسوخة، وكيف راق وجهها، وجمع بين براءة الطفولة وعتو الجبروت!
ثغر صغير، وأنف دقيق أفتى، وعينان سوداوان، كأنهما الماستان، وشعر
كستنائى مدهش، مفروق نصفين... ولا تترين بأكثر من لؤلؤتين
في الأذنين، وقلادة من اللؤلؤ... .

هذه الفتاة تبدو عليها مخائل الذكاء، والحذق، وسعة الحيلة.. ولا بد
من الاعتراف بأنها كانت فاتنة، على الأقل، في تلك الحقبة من حياتها،
وهي التي انتهزها الفنان منيار فرسم لها فيها لوحها المشهورة (الموجودة
الآن بمتحف برلين، وصورتها على غلاف هذا الكتاب).

* * *

لم يكن الملك، إذن، سقيم الذوق عندما اختارها.. رآها أول مارآها
وهو ذاهب لزيارة والدتها، مدام مانشيني، أخت الكردينال مازاران .
وكانت تلك السيدة، يومئذ، مريضة مرض الموت، طريحة الفراش في
مسكنها بالدور الثاني من قصر اللوفر. واجتاز الملك غرفة ماري في ذهابه
إلى غرفة أمها... .

وهكذا ألفى الشابان نفسيهما يتقابلان ، ويتحدثان ، ويعجبان
ببعضهما . ولكن هذا الحب الذي نبت في زحمة القصر القديم وزهمته ، أو
قل : إلى جانب امرأة تحضر ، لم يشب ويتزعرع إلا في طلاقة الهواء النقي ،
في الخلاء ، في فسحة الحدائق والغابات الملكية ، في كومبيين ، وقانسن ،
وفونتنبلو .

ففي قانسن كان خالها الكردينال مازاران قد شيد لنفسه بيتاً ، بل قصرأ
خلوياً ، على نسق الثيلات الإيطالية الفسيحة ، مغطى الجدران بالمرايا (قلده
فيها الملك بعد ذلك في قصر فرساي) ، مزخرفاً بالخشب النفيس ، ملون
السقوف بالرسومات ، واللوحات الفنية . . وكان ما يشرح الصدر حقاً ،
غير ترتيب غرفه ، ذلك النور الساطع في أبهائه يبهز الأبصار ، مما كان له
أسعد الأثر في لويس الفتى المراهق ، كلما غادر قصر اللوفر العتيق المعتم .
وكانت ماري ، العصرية في كل حركاتها ومظاهرها ، خير من يجعل لبيت
خالها هذا طابع الجدة ، والطرافة ، والصباء ، والإشراق . . فصارت في عيني
الملك الشاب حورية هذه البقاع الجميلة .

وخلال صيف ١٦٥٨ ، في فونتنبلو ، كانا يلتقيان على حدة ، أكثر
مما كان يتاح لهما في قانسن ، أو اللوفر . . وكانا ببعض من يههم الأمر
يجبذ لقاءهما . .

وخلا لهما الجو ، فإذا هما يمتطيان جواديهما في الغاب ، ويتناولان
وجبات خفيفة تحت الخنازل ، ويسيران جنباً إلى جنب بين الأدغال ،
ويتنزهان في دجى الليل على القنال الكبير .

وحمل الملك ذات يوم صاحبتة على تسلق الصخور .. قالت ماري :
« وكان ذلك مما يخذل الأذرع والسيقان ، بل كان مما يحطم الدماغ » .
ولكن لم يبد على الفتى والفتاة أنهما تعباً ، أو خاتهما القوى .
ثم أمر الملك ، فجاءوا بالكمنجات ، وعزفوا ، ورقصوا على العشب
الحنون ، حتى جن الليل ...

* * *

وانتهيا بأن وقع كل منهما في شرك صاحبه ، إلى حد أنهما كانا ،
في بعض الأوقات ، مهوسين هوساً .. ولم يكن الأمر في أوله إلا لعباً .
كان لويس ينشد في ماري حبيبة تشرفه . وعاطفة عظيمة ، جذيرة بمكانته
العالية ، وخليقة بالفارس النليل ، أنبل فرسان المملكة .. ولم تكن ماري ،
باديء ذي بدء ، تنشد إلا أن تنتقم من أهلها ، الذين كانوا يستهينون بها ،
وتنتقم خاصة من أختها الكبرى أوليمپ ، بأن تأخذ منها عشيقها . ذلك أن
لويس كان قد بدأ بأوليمپ مانشيني ، يلقي عليها شباك الهوى .. فها هي ذي
ماري ترى ، من وراء هذا الحب الملكي ، ثاراً ، ونصراً ، وكبراً ! ..
تسحق أولاً أوليمپ الشاحخة ! .. وبعد ذلك سوف نرى ! .. ومن يعرف
تلك النفس الطموح الجموح ، يستحيل عليه ألا يحكم عليها ، بأنها ، من اليوم
الأول ، قد داعبت ، في صميم ضميرها ، الأمل المرجو : أن تكون ملكة .
وإذا كان ذلك حقاً ، فهي قد حرصت على ألا يبدو للعيان : ففي خلال
العامين الأولين من غرامياتهما العذرية ، ظلا في الواقع لا يريدان شيئاً
غير أن يكونا حبيبين ، حباً روائياً ، خيالياً ، منزهاً ، كما في قصص

العصر .. يجهد لويس جهده في أن يبهز الفتاة بكل ضروب الشجاعة ،
والإقدام ، التي تميز بطلا من أبطال الشباب ، ففي خلال حصار مومنيدي ،
عرض نفسه ، عن طيبة خاطر ، للأخطار ، حتى يرى عيني ماري تتألقان ،
إذ يروون أمامها حديث مجازفاته ووقائعه ..

استمع إلى « لاجراند مدموازيل » ، التي رافقت البلاط إلى سيدان ،
تصف أحد هذه المشاهد : « وصل الملك إلى سيدان في الساعة الثانية بعد
الظهر .. وكانت الملكة الوالدة تنتظره على الغداء . أقبل عدواً ، ووصل
مبلا ، موحلا ، إلى حد أن الملكة قالت لي ، وهي تراه بهذه الحالة من النافذة :
« بودي لو لم تريه قبلما يبذل ثيابه » ! .. ودخل ، ومع أنه كان أشعث
أعبر ، فقد وجدته مشرقاً بالصحة والإقبال .. وطفق الملك يروي أخبار
مومنيدي .. وأنه حدث ، في ناحية من الغابات ، أن أطلقت العيارات النارية
على مركبة في موكبه ، فثقبها الرصاص ، وجرح السائق ... ولما سمع الملك
دوى الطلقات نزل عن مركبته ، وامتنطى جواداً ، وتغلغل في الغاب ،
حيث ضبط عشرة أو اثنا عشرة من الرماة ، كانوا متربصين بين الأدغال »
لم تكن تلك الروايات الممتعة تروى إلا لتسمعها ماري ، التي كانت
هناك في غرفة الملكة ، تصغي ، وقد احمر محياها سروراً ، وارتعدت أوصالها
تأثراً .. وهكذا يتفانى لويس في تقليد أبطال القصص التي طالعتها وصاحبته ..
وكلاهما فيما يلوح ، مسلم بأن هذا الحب المندفع سيحدث منه زواج أحدهما
أو كليهما ، وأنهما لن يستطيعا أن يفتننا ببعضهما .. فليزوج ، إذن ، كلاهما
من يفرض عليه ، وليضيا في تبادل الحب ، وارتشاف كؤوسه التي قد
تسكرهما ، عندئذ ، فوق ما سكرنا من رحيق الحب الطاهر ! ..

نقول ظل حبهما كذلك عندياً إلى النهاية .. ويرى المعاصرون أن الأمر إنما مرجعه إلى ماري، الطامحة، الباردة، التي عرفت كيف لا تجعل هواها هو اناء. في حين يذكر آخرون أنها كانت محروسة أشد حراسة، على يدي شمطاء نكراء، هي «(مدموازيل!) دي قنيل»، زوجة قاض في «إكس»، كلفها الكردينال مازاران رقابة بنتي أخته: ماري، وأوليم. والحق أن الصدفة أيضاً لعبت دوراً غريباً في إحاطة العاشقين برفيق من العفاف تعبت في مراسه الأهواء، إذ كيف يخلو فتى وفتاة ألهب الوجد قلبيهما بسعيه، ويقضيان معاً ساعات من النهار، وأحياناً من الليل، على انفراد، دون أن يقع المحذور، الذي يخذش الشرف؟ ناهيك بطبع الملك الفتى الحامى، وأهوائه العنيفة!... لعله الأدب، وروايات الحب العذرى، هي التي هدت تينك النفسين إلى جمال الخيال، وضللتهما عن الحقائق الجارحة، وأبعدتهما عما لا يمكن إصلاحه!... وعلى ذلك، فالتفسير المعقول، هو أن الملك احترم ماري، وراعى كرامتها، لأنه أحبها حباً كاد يكون تقياً نقياً!...

ومهما يكن، فإن هذا الحب، كما في روايات العصر، بدا بحيث يمكن التوفيق بينه وبين قران كل منهما بشخص آخر!... ولما جاء البلاط في أواخر عام ١٦٥٨ إلى ليون، لخطبة الأميرة مرجريت دي ساقوى للويس الرابع عشر، صحبت ماري مانشيني مليكها في سفره!... لا يفترقان خلال الرحلة، ولا يعنى كل منهما إلا بصاحبه، مما يدل على أن كليهما مسلم بأن: الحب شيء، وزواج الملك شيء آخر!...

ثم حدث أن لويس لم يتزوج الأميرة مرجريت ، وكان لمارى
بعض الأثر في فصم الخطبة ، حتى لقد عاد من ليون مستقراً عزمه على
الاقتران بصاحبته (مارى) ! ...

ومع ذلك حُرِّمها ، ولم يتزوجها ! .. وكان هذا الحرمان ، ووفاة أمه
فيما بعد ، أعظم حزن أصابه في حياته ..

ألقي بنفسه جائئاً أمام والدته « آن دوتريش » ، والكردينال مازاران ،
الذى كان يعارض في هذا القران ، وسكب سيولا من الدمع .. ومرض
من لوعته .. وبعد أحد تلك المشاهد المؤثرة ، قالت الملكة الوالدة لكاتمة
سرهما مدام دى مونثيل : « إنك لو رأيت الملك لأشفقت عليه » ! ..

وكان لويس مستعداً لكل شيء في سبيل الزواج من تلك التي يجب :
يفرض إرادته كملك ! .. يحمل الكردينال ، ويحمل أمه ، على لزوم الصمت
والتسليم ! .. ينفيهما إذا دعت الحاجة ! .. وهو يعرف أنه سيثير على نفسه
الرأى العام في كل مملكته ، ويتعرض لفقدان عرشه .. لن يهمله من هذا
شيء ، على شريطة أن يتزوج مارى ! ..

هذا هو الوجد ، بكل فورته العمياء ، وخيالاته الشوهاء ! ..
على أن الأمور ليست من السهولة بهذا المكان .. فهما يكن في قلبه
من الوله ، فهو لم يخضع لاندفاعه ، لأن مازاران يحول دون تهوره ..
ولو لم يكن ثمة مازاران يعترض سبيل شهوته الجامحة ، فإن هناك ضميره ،
يحمه على العدول عن القران بمارى ، وينأى به عن ارتكاب هذه الحمافة .
وسرعان ما تسلف لويس الشعور بالزعيم الذى كان في أثوابه ، يشعره بأنه

فرق بقسوة بين العاشقين . ولم يكفه هذا ، بل عمل على إيجاد الشقاق بينهما ،
ووفق : جعل ماري تصدق أن لويس يخونها مع أختها أوليمپ (التي صارت
كونتس دى سواسون) . وبعد ذلك ، لما خشي مغبة الصلح بين الملك
وبنت أخته ، عرف كيف يقنع الملك بأن ماري مخبولة حباً بالبرنس
شارل . فلم يحتمل الملك هذه الخيانة ، حقة كانت أو باطلة .

وما إن تحطمت أجنحة لويس الخيالية . المحلقة في سماوات الحب ، فهبط
إلى الأرض ، حتى بدأ يدرك ، شيئاً فشيئاً ، تلك التيارات التي تجرى تحت
قدميه . . . وكانت النتيجة الأولى التي استخلصها لنفسه : أن الملك
مستهدف دائماً للخديعة من أولئك الذين يحيطون به ، وأن لاشيء أصعب
عليه من أن يجد الخل الوفي الذي يستطيع أن يثق به ثقة مطلقة ، أو
الصديقة الآمنة التي يؤمن جانبها .. ثم نظر من زاوية أخرى إلى سلوك ماري
في هذه المغامرة ، فاستدل منها على أنه ما من امرأة يمكن أن تكون مخلصه
معه ، إخلاصاً صادقاً مطلقاً ، باعتبار أنه : الملك ، والتاج ، والعرش ، وكل
تلك المزايا التي لا يستهان بها ، والتي يُعشق من أجلها . . وعلى ذلك ، فليلزِم
جانب الحذر من النساء ، ومن حب النساء .

وأخيراً ، دله تملص ماري منه ، وبعدها عنه ، على أنه ما من امرأة
ترضى أن تضحي بنفسها في سبيل الدولة . . في حين أنه ، هو ، قد تقبل
هذه التضحية باستسلامه للزواج من « ماري تيريز » . . أما ماري مانشيني ،
فعلى العكس منه ، لم تسلم بحق الدولة على الملك . فتحولت عنه ، وصدت ،
حين رأت أنه لا يستطيع العقد عليها ، والبناء بها .

ليكن إذن !... إنه لن يتمرد على ضرورات ظروفه القاهرة ، ولن يشور
على قوة الحالة الراهنة ، ولن ينوء بتكاليف الحكم الباهظة . سيمضى حتى النهاية
في قبولها ، ما داموا ينشدون فيه الملك ، ولا يحبون فيه إلا الملك .. فسيكون
ملكاً ، حتى في الحب . وكأني به يقول ، من الآن فصاعداً ، لخليلاته :
« أحببني ، إذا شئت ، ولكن لا تنسين أنني الملك ، أى مخلوق محسوب على
الدولة ، في كل ساعاته ولحظاته ، وعليه أن يقدم أعز عواطفه للدولة قرباناً .
وأنة مسئول أمام الرأى العام ، وأن الجمهور لا يغمض عنه بصره قط ، فهو
عنده الجندى شاكى السلاح حارس الوطن ... إني مضطر إلى ضروب من
الضيق والحرمان ، وإني لمطيع لها ، مهما كبدتى وأرهقتنى من أمرى
عسراً .. فافعلن مثلى ، تضايقن ضيقي ، وعانين حرمانى ، فأنتن لستن محظياتى
فقط ، بل أنتن مكلفات بمهمة فى البلاط ، وأنتن وصيفات شرف ، ومن
حاشية الملكة ، ودوقات .. وبهذه الصفة تصعدن إلى مركباتى مع زوجتى ،
وتتبعننى إذ أتبع الجيش ، أو أذهب إلى الريف ، فتحضرن طعامى ، وتشتركن
فى حفلاتى الراقصة وأعيادى ، حتى ولو لم تكن بكن رغبة ، حتى ولو كنتم
مريضات .. ربما سميتن هذه المغالاة منى أنانية فظة . أما أنا فأسميها
أداء الواجب . أجل ، ستفعلن مثلى : فأنا أودى الواجبات التى تفرضها على
وظيفتى ، حتى ولو لم تكن بى رغبة ، حتى ولو كنت عليلاً ، حتى ولو
عرضت للهلاك حياتى ... فلا تنسين أنكن محظيات الملك ، لا محظيات
شخص ما من الرعية ، وأن الملك لا يستطيع مجابهة الرأى العام ، ولا
أن يفضح نفسه لدى الجمهور بسيره وسلوكه ... وعلى ذلك ، ستكون

غرامياتنا سرّاً في الاتصال ، وسراً أيضاً في الانفصال . ولن يكون من
 حقن إثارة فضيحة ، عندما أسلوكن ، أو أكف عن حبكن — لأن كل
 شيء بالطبع محتمل الوقوع — ولن يكون لكن أن تجمعن بتوبتكن ، أو
 تشهرن بندامتكن ، إذا حدث ، عرضاً ، أنكن ندمتن على محبتى . ستمثلن
 إذن صاغرات ، وتضبطن النفس ، وترفعن الرأس ، كما أفعل أنا ، وإذا شئن
 العبارات الطنانة ، قلت لكن : إنكن ستصرن شهيدات المظهر ، كما أنا
 شهيدة . . . وليس من عظمة حقة إلا في قهر النفس ، وكبح جماح الحس ! . . .

* * *

ومهما يخف من فكر لويس الرابع عشر ، فإن سلوكه الغرامى يدلنا على
 أنه هكذا فكر ، وهكذا فعل . بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا . فلنحاول
 التنقيب إذن عن طيات ضميره الأخيرة : فمن المحقق أنه ، كملك ، كانت لديه
 فكرة عالية عن نفسه ، فإذا كان يعد وظيفته كتضحية دائمة للدولة ، فقد
 كان يقدر أنه ، هو الملك ، خليق بأن يضحى^و من أجله التضحية كلها . . . فقد
 طالما قيل له إنه إله على الأرض ، مسيح حى . . . فما دام المسيحي يضع
 هناءه الأعلى في تضحية نفسه لربه ، فينبغى أن يضع سعادته في فداء مليكه ،
 لأن مليكه هو مسيحه .

وأخذ لويس يكدح ، ويدأب ، دأباً متواصلاً ، من أجل الآخرين ،
 من أجل المصلحة العامة . وهو لهذا يستحق بعض العوض ، بعض الجزاء .
 وهذا الجزاء إنما يكون بتحمل الضيق من أجله ، والتضحية بالنفس
 في سبيله ، إذا اقتضى الأمر . . . وتقبل قسوته ، وخشوته ، ونزواته ،
 وبدواته ، وشخصيته الساحقة ، الطاغية شيئاً ما . . .

وبداهة أن مشاعر مثل هذه ، يصعب تبريرها وفهمها في زمننا
الديمقراطي هذا ... ولكن لنذكر أننا كنا في القرن السابع عشر ، وفي
فرنسا ، وفي عهد عبادة الملكية : ونحن نحسب أن هذا نحو مما يرجح أنه
خطر بيال لويس الرابع عشر .. بل إننا نذهب إلى القول بأننا ، في أيامنا
هذه ، ليس من النادر قطعاً ألا نلقى أنانية من هذا الطراز ، في بعض الرجال
الذين يظنون أنفسهم أبطالا ، وعباقرة ، وأنصاف آلهة ...

ومع ذلك ، فهما أراد لويس الرابع عشر أن يكون واقعياً في
الحب ، فارضأ إرادته وظروفه وملابساته على الحبيبات ، فقد كان ، خلقاً
وطبعاً ، « هيبياً » بفطرته ، بحيث لن يحاول مرة أخرى ، أن يحب بأوسع
معاني الحب الخيالي القصصي ..

وهكذا ، لم يغن حذره عن قدره ..

وبرغم تجربته الغرامية التعسة الأولى ، استرسل في حب لويز دي
لاقالير ، وأسلها الفؤاد ...



نحب . قبل أن نسمع تراويل الهوى الملكي الثاني ، أن ندع قلبه قليلا
يستروح ، لنرى عقله : لنرى كيف يتلقى الملوك تربيتهم السياسية ، ليكونوا
جديرين برسالتهم العليا : شرف و وطنه .. ثم نعود ، بعد ذلك ، إلى قلبه ..
لنستمع الآن إلى رأى « سان سيمون » مؤرخ بلاط لويس الرابع
عشر ، فى مذكراته الشائقة : « ... كان عقله قابلا للتكوين ، والتهذيب ،
والتشذيب ، والاقْتباس من الغير ، بلا تقليد ولا تحرج .. فانتفع نفعاً
لاحد له بعيشه ، طوال حياته ، مع أناس توافر لهم ذلك كله .. هم من كل
لون ، ومن رجال ونساء ، ومن كافة الأعمار ، ومن جميع الأشكال ، ومن
كل الأحوال ... »

ومع ذلك لم يكن لويس مقلداً صرفاً ، أو محاكياً بحتاً . إن له طابعه
الذى سيضفيه على ما حمل إليه معلوه ومستشاروه من تربية وثقيف ..
إن له عبقريته المؤاتية ، وشخصيته البارزة . وسيعرف كيف يصقل هذه
وتلك بالاحتكاك ، مدى حياته ، برجال عظام . كان يحب العقل الجميل ،
وآيات الذكاء اللامع ، ولا يحب الجهر بالسوء من القول ، أو الغيبة والنميمة ،
أو النقد الحسود ، أو التشكك الهدام . إنه هو البناء الأعظم . يعرف كيف

يتم البناء المشمخر ، ويستخلص من الرجال خير ما يستطيعون ، وأبعد مما
يستطيعون . . .

ويقف الكردينال مازاران ، بين أولئك الذين ساعدوا لويس علي
تكوين نفسه ، في مكان علي . فكان له المعلم الأول ، والموجه الأعظم ،
وكان رائده ، وكان أباه الروحي . . وإنها لعناية الله حقاً ، التي جمعت بين
هذين الكائنين .

* * *

من هو إذن مازاران ؟ . . هذا الإيطالي ، ذو الثوب الأرجواني ،
والأوضاع الفاتنة الصامته ، هذه الشخصية الجذابة الساحرة ، التي أوصى
بها ريشليو ، وهو علي فراش الموت ، لويس الثالث عشر ، فاتخذ منه وزيره
الأول . ثم لما قضى الملك نحبه ، لم تتوان آن دوتريش ، الملكة الحسنة ، عن
أن تجعل منه عراب ولدها ، الملك لويس الرابع عشر ، وحاكم فرنسا الفعلي .
حين ظهر مازاران لأول مرة في البلاط ، بهر لمرآه وزراء لويس
الثالث عشر الشيوخ . . رأوه فأكبروه . . صورته لنا أوليقيه دورمسون في
مذكراته : « . . . طويل القامة ، مزدهر الصحة ، جميل الطلعة ، كستنائي
الشعر ، عيناه تقدحان حياة وذكاء ، مع حلاوة في المحيّا ترتاح لها القلوب »
هذا الخبر الأعظم ، الكابتن السابق في مدفعية الجيش البابوي ، كان من
أرق الناس حاشية ، وأرشقهم مظهرآ . . تربى في روما ، بكلية اليسوعيين
(الجزويت) ، وأتم دراسته في إسبانيا بجامعة ألكالا . . عاش في روما :
المحور المختلط ، مركز الفن والحضارة . ثم في إسبانيا : أغنى البلدان ، وأعزها

أبّه ، فاكسب أرق وأرقى ما فيها . وأخذ منها - فضلا عن رقة الحاشية ،
ودمائه الطبع ، والمرونة والليونة - ثقافة الجمال ، وتذوق الاشتهاء ، ونمطاً
من الاستمتاع بالحياة ، وتزويقها ، وتنظيمها ، وإلى هذا كله : التحرر من
تقاليد عتيقة ، وهو الطابع الذي يميز الرجل الذي سافر وتنقل بين البلدان ،
واستنشق هواء أعظمها تقدماً ، وأسبقها عمراً ، بحيث صار جزءاً منه
لا يتجزأ : أن يسبق زمنه ، وأن يعلوه بالتذوق والمزاج والفكر جميعاً ،
ولو كره المحافظون ...

لذلك لانبلث أن نلقى الأوساط البرلمانية ، والوزارية ، مبهوتة بما تراه
فيه ، ثم يطغى عليها الحقد والنقمة على هذا الأجنبي . ويتمخض ذلك عن
حرب عوان ، بين حزب بلاط الملكة آن دوتريش ومازاران من جانب ،
والبرلمانيين من جانب آخر ، مما سيظل ناشباً من عام ١٦٤٨ إلى عام ١٦٥٣ !
وهم يتسارعون قبل هذه الحرب الظاهرة إلى الحرب الخفية ، فينبشون
ماضيه ، ويستخرجون أصله وفصله . وهم لا يجهاون أنه من منبت وضع .
ليس هذا موضع شك . ولكن ماذا فعل الأصلاء بأصلهم الرفيع ، إذا
ما هووا بخسة إلى الخضيض ؟ . . . وفيم يضير الرجل الوضع أن يرتفع ، ثم
يرتفع ، ثم يخلق ، ثم يشق طريقه إلى عنان السماء ؟ ! هكذا كان مازاران .
فهو لم يكن أميراً من أمراء الكنيسة فحسب ، بل الولي الحقيقي لدولة
عظيمة ، وعشيق ملكة (وربما زوجها سرّاً !) . ولقد استطاع أن يزوج
بنتي أخته من أمراء حاكمين ، أمراء من دم فرنسي صميم . ولو شاء لزوج
الصغرى من ملك فرنسا - كما قلنا - فهذا الرجل ، الحديث النعمة ، هو مثل

جميل على اختلاط الطبقات وامتزاجها ، ثم الصعود غير المحدود الذى يتاح لمن أوتى الحكمة ، ولو كان من الدهماء .

ومع هذا العز المؤاتى ، والثراء الذى يخلب الألباب ، هل تراه بدّل جنسيته الإيطالية بالجنسية الفرنسية ، كما يقولون ؟ .. وهل تراه بلغ تلك الرتبة الرفيعة من الكهنوت ؟ .. وهل تراه تزوج شرعاً الملكة الوالدة آن دوتريش ؟ .. إن الرد على هذه الأسئلة لا يبدو سهلاً ، وأكثرها يبقى بلا جواب . فالمؤرخون يؤكدون لنا أنه حصل فى أبريل ١٦٩٣ على خطابات اعتماد لتجنسه ، سجلت فى البرلمان خلال شهر يونيه من السنة نفسها . ومع ذلك فعندنا رأى الطبيب الأديب جاى بتان عند موت مازاران : « لقد اكتشف هنا : أن الكردينال مازاران لم يتجنس بالجنسية الفرنسية . ويدعى البعض أنه كان يرمى إلى أن يصبح « بابا » ، وأن هذا التجنس يحول بينه وبين مطمحه ... »

ثم كيف يمكن أن يعقد الكردينال على الملكة الوالدة وهو راهب ؟ .. اللهم إلا بمعافة خاصة من البابا ، الذى يندر أن يرضى بالموافقة على ذلك . ثم لا يوجد قطعاً أى دليل على هذا الزواج . وثمة ألف دليل على أن الملكة الوالدة كانت هائمة بالكردينال أشد الهيام . والرسائل المتبادلة بينهما تفضح ، على تسترها ، غرامهما .. فقد اتخذنا فيها تعبيرات للبودة المتبادلة ، وراء علامات اصطلاحية ، يصعب على غيرهما تحديد مغزاها ، فقد كانت الملكة تقية . وكان الكردينال حبراً من رجال الكنيسة . فعبارات الحب التى استخدمها يمكن أن تعد ، كما فى الكتب الدينية ، ذات مرمى روحى

قدسى ! . وهما يذكرا ن فيها دائماً : « الروابط التي لا يمكن لشيء
قط فصمها » ...

وإذا سلطنا جدلاً بأن هذه الروابط إنما كانت لصداقة خالصة ، أو حب
أفلاطوني نقي ، فمما لا نزاع فيه أن الملكة ألفت في هذا الحب بنفسها ،
و بمجامع قلبها ! . أما مازاران فكان أشد منها ، بما لا يقاس ، تحفظاً وتحرزاً .
وحاولت أن دو تريش ، لدى صديقاتها اللواتي عتبن عليها ميلها إلى الكردينال ،
أن تضفي على عاطفتها صبغة بريئة ، محتجة بأن هذا الرجل الجميل لا يميل
قط إلى النساء . . وبداهة أن مازاران كان يقابل حب الملكة العظيم له
بالتفاني المطلق فيها . . كتب في مفكراته بتاريخ ٢٠ و ٢١ مايو ١٦٤٣ :
« أريد أن أكون لها اظلام المطيع . . وقد فكرت جلالتها في أن تكلفني
بخدمتها ، وأن تكون حجرتي عندها ، وأن أتولى إدارة مصروفات جلالتها
السرية ... »

وهكذا لا يريد مازاران ، بادئاً ، إلا أن يكون خادماً ، يقسم لمولاته
على الوفاء في كل امتحان . وهو يقدم فروض الولاء الذي كان ملوك ذاك
العهد أشد ما يكونون حاجة إليه . . على هذا التفاني العبودي منه ، وعلى هذه
الثقة المطلقة من الملكة ، أقام ذلك النابولي اللبق ثروته وسلطته .



لكن كيف كان موقف الملك الشاب من هذا الرجل اللين العريكة ،
الحصيف ، السكتوم ؟ . . من المحتمل أنه كان ينقم على الكردينال في قرارة
نفسه سلبه منه قلب أمه . ولكنه كان يدرك أنه يستطيع الاعتماد تماماً على

هذا الأجنبي ، وأنه مدين له بتاجه ، وربما بحياته . أما مازاران فقد انحنى من جانبه على هذا الملك الصبي بعناية أبوية .. كان : هو ، والملكة ، والملك ، يكوّنون ثالوثاً لا انفصام له ، متحدين في شبه عهد عائلي . ومهما يكن رأى الملك في وزيره ، فقد كان عارفاً بحميلة ، إذ وضع فوق كل شيء سلامة الدولة . فاطمأن إليه ، واستسلم تماماً ، معجباً بحكمة هذا السياسي الألمعي وتجربته . يتلقى دروس أستاذه ، ويحذقها ! ..

* * *

وسكن مازاران ، منذ السنين الأولى لتوليه الوزارة ، في قصر پاليه رويال ، قرب الملكة .. ثم صارت له ، فيما بعد ، شقته في قصر اللوفر ، تحت مخدع الملك ، بحيث لم يكن يقطن قصره الجميل الذي أنزل فيه بنتي أخته ، وإنما يأوى إليه من حين إلى حين ، ليستروح بين آياته الفنية المدهشة ، التي جمعها بذوق مصفى ..

وكذلك عاش لويس مع وزيره عيشاً يكاد يكون متصل الأسباب .. وكان ذلك للملك الشاب كنموذج يحتذى ، ولا يكاد يغيب عن ناظريه .. ونحن ندرك مدى ذهول وإعجاب ذلك الفتى ، المفتون بنفسه شيئاً ما ، عندما يدخل مكتب عرابه الجميل ، فيجده جالساً في مقعده الكبير وعلى ركبتيه نسناستان صغيرتان ، أو لاهياً يجعلهما ترقصان وهما متسكرتان في أزياء سيدات البلاط ! .. وفي ركن من القاعة ، مجامر يتصاعد منها البخور العبق ، يلتقي فيها الخدم حبوب العنبر والياسمين ... وفي الصيف ، تصفّ على منضدة ألوان الشراب المثلج الطهور ، على الطريقة الإيطالية ، كعصير الليمون

والبرتقال ، ومن كل الثمرات .. والمكان يتضوّع بألف رائحة زكية ..
والسكردينال نفسه يتضمخ بالعطور . ويعطر كل شيء حوله ، حتى قروده !
وكان يكلف راهبات إيطاليا بصنع بخوره وعطوره .. وكانت قفازاته
الأسبانية مضمخة بالمسك .. وكان فذاً في أناقته ، بحيث استنكر هذا منه
المتزمتون ، وأخذوا عليه ميله لمسارح التمثيل والأوبرا والحفلات الراقصة .
وكان يقرب إليه المغنين والممثلين والراقصين . وكان الملك الفتي مهووساً
بهذا كله . وشعر بعرفان الجميل نحو وزيره الذي يحب هذه المسرات
والأناقات المترفة ، التي هو نفسه مفتون بها . وليس يخفي ما يثيره هذا الترف ،
وهذا التفاهم ، من حقد وحسد .. ولكن السكردينال كان يترفع عن حسد
الحاسدين وملذات التافهين ..

كان خبيراً بالموسيقى ، مولعاً بها .. وكان من هواة الكتب الجميلة ،
والتماثيل ، واللوحات ، وتحف الفن من كل نوع . وكان ، كمواطنيه ، يحب
البناء البديع ، والخيول الكريمة .. جعل مكتبته مضرب الأمثال . وجعل
قصره من قصور ألف ليلة ، يدفع ألوف القطع الذهبية ثمناً لرخامه الأثري ،
ومكاتبه الأبنوس ، ومناضده المرمرية ، « المحفور بعضها على أشكال
العصافير » .. والمنضد غيرها بالأحجار الثمينة وعروق الذهب .. والمتخذ
غيرها من الفسيفساء ! .. هذا ، إلى مراهه ، وكؤوسه الفينيسية ، وأسرته
العاجية .. و .. وكل ما يمكن أن تبذعه الملائكة ، وأن تتسكره
الشياطين ! .. قال مؤرخو عصره : « كان له ، فيما له ، في مكان ما من هذه
الدار ، كرسى انتحى به ركناً خفياً ، إذا ما جلس عليه ، تحركت زنبلكات

مجهولة ، فإذا ما شد إليه حبلا ، نزل ، أو صعد ، طبقاً لمشتهاه ! .. »
وربما تبادرت إلى الذهن أشياء وأشياء عن هذا الكرسي الذي حار في
تفسيره معاصروه ، في حين أنه لم يكن إلا المصعد (الأسانسير) ، اخترعه
مازاران لقصره ، قبل مهندسينا بمئتين من السنين ! ..

وكذلك كان الكردينال مغرماً بالحفلات العظيمة ، التي كانت تمهيداً
لأعياد فرساي التاريخية ، لا يدخر في هذا الشأن مالا ، هو ، الحريص ،
كان يجب أن يبهر سادته الملوك ورعاياهم ببذخه وكرمه ! ..

سيتفح لويس بهذه الدروس ، ويتذكرها ، كما يتذكر تلك « اللوتريا »
— اليانصيب — التي كان يقدم فيها الكردينال لضيوفه ، احتفاءً بملكه
ومليكته ، أئمن الهدايا .. وكان ذلك شيئاً طريفاً في بلاط فرنسا ، كان
بدعة إيطالية .. وسيكون الملك في هذا ، وفي غيره ، من الهوس بالعطور ،
إلى تشييد المباني والقصور ، وإحراز اللوحات والتماثيل والتحف والأثاث
النفيس ، وفن تجميل الحياة وجعلها شائقة ، سيكون الملك في هذا ،
بلا ريب ، المرید العبقري لمازاران ، والتلميذ الوفي ..

* * *

لا مشاحة إذن في التأثير الذي شمل التلميذ من أستاذه .. وكان بينهما
يقيناً الكثير من الروابط الروحية . وإن كانت بينهما اختلافات عديدة .
مثال ذلك أن لويس الرابع عشر ، مهما قيل في تصرفاته وأعماله ونزواته ،
كان ، في صميمه ، متديناً تقياً . أما تدين الكاردينال فوضع الأخذ والرد ،
ولا يمكن القطع به ، أو الاعتماد عليه . وكان أعداؤه يرددون أنه لم يكن

مسيحياً إلا شكلاً ، وأن أخلاقه ، كسياسته ، دينوية بجته . . والحق أنه لم يكن في الدين من المتهوسين . . ولما كان على فراش الموت ، رآه الأسقف دى شوازي ، فكتب : « لقد مات فيلسوفاً أكثر منه مسيحياً . . . مات بثبات عجيب ، وطمانينة جاءت ، كما كان يقول ، من براءة حياته الماضية »

وقد تأثر لويس الرابع عشر ، على رغمه ، بمشاعر وزيره وأستاذه ، فتجنب المتقين الورعين ، طول حياته ، وكان منهم على حذر . فإن مازاران لم يكده يتولى الحكم حتى صار له الأتقياء أعداءً . فدوّن في مفكراته : « إن الأديرة كلها تناصبنى العداء ، ولا سيما » قال دى جراس « . . إن هؤلاء الأتقياء ضعيفو الإيمان . . وهذا هو السبب في أنهم يتخذون خدمة الله حجة ، وما لهم في الحقيقة إلا أعداء لصالح الدولة . . وفي زمن الوصاية على ملك قاصر ، وبين مطالب الشعب ، والكبراء ، والبرلمانيين ، وعندما تكون فرنسا مثقلة الكاهل بأكبر حرب خاضت غمارها ، تكون الحكومة القوية ضرورة محتمة لا غنى عنها . . ومع ذلك فإن الملكة الوالدة (آن دوتريش) تتأرجح . . إنها تلحق الشؤون العامة بالشؤون الخاصة ، ولا سيما شؤون الدين . . وكان عليها أن تعمل النقيض . . فإن حكومة هذه المملكة وتربية الملك هما الواجب الذي ينبغي لها أن تجعل أداءه في المحل الأول ، وعليها أن تقتنع بأن اللحظة التي تكرسها من وقتها لهذا الواجب ، هي أحب إلى الله من ساعات تقضى في الصلاة ، وزيارة الكنائس ، وحضور القداس صباحاً ، والتهجد مساء . . . »

أليس هذا القول يفوح زندقة وهرطقة؟! ولكن أليس الحق ، سياسياً ،

مع مازاران ، غير منازع ، ضد هذه العصبة التقية ؟ .. فقد أرادت هذه
العصبة أن تحمله على الصلح مع إسبانيا ، وعلى حرب صليبية ضد الأتراك
وضد البروتستانت . وكان غرضها الصراح أن تعيد وحدة المسيحية ضد
الزنادقة والملحدين . . . بيد أن خليفة ريشليو كان من الحصافة والإدراك
بحيث لم يهوى في غمار هذه المغامرات .

وكان لويس الرابع عشر يرى رأيه . كان مثل السكردينال على حذر
من مؤامرات المتقين ودسائس المتدينين ، يدافع بقوة عن الدولة الدنيوية
ضد اقتراحات المتعصبين . وإن كان الملك ، على خلاف وزيره ، قوى
الإيمان ، شديد التدين . وكان السكردينال قلقاً من هذه التقوى . لم يكن يريد
تلهينه راهباً . . . فجهد جهده في أن يحوله إلى حقائق الوجود ، وواجبات
الدولة ، وأن يطبعه بطابعه الدنيوى ، هو ، الذى يرتدى ، مع ذلك ، قباء
القساوسة ! ..

فهذا السكردينال ، الذى يعد من أمراء الكنيسة ، كان أشد تعلقاً
بطيبات هذه الدنيا ، وأشد ما يكون حرصاً على المال . ألسنا نراه ، عشية
موته ، يزور للهرة الأخيرة متحف لوحاته الجميلة ، وهو يتوكأ على عصا ،
ويجر قدميه المريضتين جراً ، ويتوقف أمام آية من آيات النسيج النادرة ،
أو تحفة من التحف الثمينة ، ويتنهد من كبد حرسى ، قائلاً : « أنترك كل
هذا ، ونحرم منه ! .. ؟ »

وكان أعظم ما يحرص عليه السكردينال هو صحته . . . فقضى عمره فى
العناية بها ، وكان عبداً أعمى لأطبائه الذين انتهوا بقتله قبل الأوان ، مثله

في ذلك مثل لويس الرابع عشر .. فقد تأثر الملك في هذا أيضاً بأستاذه ،
فكان يثق بالطب ثقة عمياء .. كما تأثر به في حب المال حباً جمّاً ، يميل
إلى كثره ، ويتعلق بخيرات الأرض وطيبتها .. ولقد كان حقاً : « الملك
الشمس » .. لو استطاع لحبس الشمس في خزائنه ، لعل خيوطها تتحول
أسلاكاً من ذهب ! ..

ولم يكن تأثير مازاران في لويس الرابع عشر مجرد تأثير ، من قريب
أو بعيد ، وإنما هو إمارة حقة ، دمغه بها ، وترك طابعها فيه .. لقد كان
الوزير يعطى مليكة دروساً في السياسة ، ودل التلميذ العظيم على أنه جدير
بتعاليم مثل هذا الأستاذ الجليل .

ففي ١٦٦٠ ، أرسل سفير فينيسيا إلى حكومته تقريراً عن ملك فرنسا ،
جاء فيه : « ... إن كل دلائل محبته تتجه فيما يلوح نحو الكردينال . فلا يكفى
القول بأن الملك يعتبره وزيراً نافعاً ولازماً ، وأنه يجوه بعطفه لمصلحته ،
وأنه يترك له السلطة بحكم الضرورة . ولكن لا بد من الاعتراف بأن بين
الاثنين — الملك ووزيره — ميلاً روحياً ، وأنه تربطهما الزكاة والذكاء .
وكذلك يرى الملك وزيره مرات عدة في اليوم الواحد . . . وفي جميع
الشؤون ، حتى أصغرها وألصقها بشخصه ، يستشير فيه ، أو قل يتلقى
تعاليمه .. فإذا ماخوطب في أمر من الأمور ، أو إذا ما سئل مرحة ، أحالها
إلى الكردينال . وأقصى ما يمكنه عمله هو التوسط لديه . . . فلا يكاد
ينهض من فراشه حتى يذهب لمقابلة الكردينال ، سواء كان الكردينال

في شقته باللوفر أو كان معتكفاً في ذات قصره . كل هذا يجري بلا رسميات ،
على أبسط نحو يكون بين أفراد أسرة واحدة .. والسكردينال لا يهرع
لاستقبال الملك ، ولا يسير إلى توصيله . فإذا كان مشغولاً ، تنازل الملك
بالجلوس في انتظاره .. وإذا كان مجلس الوزراء معقوداً ، بقى الملك لحظة ،
ثم حيا السكردينال تحية الصباح ، وانصرف .. ولكن مسارتهم تستغرق
عادة ساعة طويلة ، وفي خلوتهما ينبئه السكردينال بكل شيء ، ويعلمه ،
ويطبع أفكاره في ذهنه ، بحيث يحيط بجلالته بمهام الأمور ، ويستوعبها ،
ويستخلص نتائجها ... ولانزاع في أن أستاذاً له هذا القدر العظيم لا شك
سيتخرج على يديه ملك عظيم ... »

هذا الوصف الشائق الغريب يكشف لنا عن روح الملك . فهو لاء
الأجانب البندقيون كانوا يرون فعلاً ما لا يراه يومئذ الفرنسيون . كانوا
أدق نظراً وأصفي فكراً . فما من شك في أنه كان بين الملك والسكردينال
« سحر روحى » ، وقرابة في الطبيعة والفكر . فهذا الملك ، نجل آنا
دوتريش ، وحفيد مارى دى مدسيس ، كان يجري فيه دم إيطالى ودم
إسپانى . ومن ثم نرى مدى الاتصال والتفاهم بينه وبين هذا السكردينال
الناپولى . وكذلك كان بينهما ذلك « التجاوب الذكائى » .. وكان الملك الشاب
شديد الاعتداد بكرامته ، قوى الثقة بقيمته الذاتية ، يجمع ، إلى هذا بين
الحياء والحذر من نفسه . فمن الطبيعى أن ملكاً فتياً ، فى الثانية والعشرين ،
يريد أن يتعلم صناعة الملك : يدخل مدرسة رجل من أعظم رجال السياسة ،
فى عصره .

لكن هذا التلميذ نافذ الصبر ، يريد أن يحكم بنفسه . وبلاده د ائيلية .
أن يحكم ، ولفيف من الأعداء يثيرونه على الكردينال . بيد أنه يترجم زه
السلطة ، ويستمع إليه طائعاً .

والسفير البندقي : يلقى في روعنا أن الملك يفعل ذلك مخافة واحتياجاً :
« كان الملك يخاف ، إذا ما ذهب عنه وزيره ، أن تعود الحرب الأهلية التي
نشبت في فرنسا ، في حدائته ، بين حزب البلاط (آن دوتريش ومازاران)
من جهة ، والبرلمان من جهة أخرى ، تلك الحرب التي استمرت سنين عدة .
وكذلك كان هذا من جلالته اعترافاً بالجميل ، وتقديراً عميقاً وإعجاباً صادقاً
بكفايات الكردينال السياسية ... وحدثت ولا حرج عما أظهره من
الوداعة والخضوع ، هذا الحاكم المطلق غداً ، نحو وزيره ، يجلس في
انتظاره على باب مكتبه ، وهو في ذات قصره ، ويدخل ، ويخرج من عنده ،
كأى كان ، كما لو كان قد ألقى وراءه ظهرياً بكل عجرة ، بل بكل كرامة .
على أن هذا الاحترام والتوقير منه لأستاذه ورئيس حكومته ، لا يمكن
إلا أن يضفي جلالاً على جلاله ، وتمجيداً لخلقه ، يشرفه على مدى
الدهور » ..

هذه التفاصيل التي رواها سفير البندقية تعود إلى عام ١٦٦٠ ، قبل
وفاة الكردينال بعام واحد . فكأنى بمازاران لم يرض إلا في اللحظة
الأخيرة بالكشف لمولاه عن أسرار الحكم . والشهود المعاصرون على
اتفاق في هذا . فهل كان مازاران لا يتعجل قصداً نضوج لويس الرابع
عشر سياسياً ، حتى لا يسلمه مقاليد الأمور ، فيتجرد عن سلطانه ؟ .. الحق

في شقة الكردينال بسوء القصد ، ليس هناك ما يقطع به ويبرره . ففيه من علم وفيه أيضاً من « لا » . ويمكن أن نفسر دقة مركزه وتقلقه ، بأنه وزير اجنبي يحكم بلاط فرنسا . تعتمد سلطته كلها على حب الملكة إياه ، واعتراف الملك بفضله ، وهي عواطف سريعة العطب ، قريبة التغير والزوال . فكانت سياسته الشخصية ترمى إلى هدفين : ألا يستغنى عنه حماته وسادته ، وأن يكون مهيب الجانب ، بل مخوفاً .

على أن هذا الداهية الخبير بالرجال ، كان من البصر بحيث لا يخفى عليه أن الملك الشاب ، من خلال قناع الصمت والوداعة ، يخفي حاجة ماسة إلى السيادة والسلطان . فهو ، إن قريباً وإن بعيداً ، سيقدر شكره على خدماته .. أو ليس الأولى به المبادرة إلى التسليم برغبات الملك ، قبلها يجابهه الملك بأمر واقع ؟ . وكان رأيه أن تليذه سيكون ملكاً عظيماً : « لا من نسج يلفي لصنع أربعة ملوك ورجل شريف » ! ..

لكن لم ينتظر الملك دعوة مرييه إلى تولى أمره ، فطفق يدرس كل شيء ، ويستعلم ، ويسأل كل الإخصائيين والأكفاء ، ويحتهد في تحريض السفراء الأجانب على الكلام ، محاولاً أن يستفيد من هذا كله ، ويتقرب إلى الجميع .. وظل يتلقى الدروس من أستاذه ، ولو جاءت متأخرة ...

إنها لفرصة عظمى أتاحت للويس الرابع عشر : أن يلقى مثل هذا الأستاذ . فما من أحد خير من مازاران يعرف أوروبا السياسية في عهده

هذا الوزير في جيوبه ، مادام قد أنقذ الملكية ، وجعل فرنسا أقوى
بما كانت؟! ..

على أن الملك كان قد ملّ طول عهد الوصاية .. وأجمع المعاصرون
على أن مازاران ، عندما مات ، كان قد آن أو ان موته . . وسنرى
كيف انتفع تلميذه بدروسه ووصاياه ، حتى صار عصره هو : العصر
الأعظم ، وحتى صار هو : الملك الأعظم ، ألمع وأسطع ملوك أوربا :

« الملك - الشمسى : Le Roi-Soleil »



اتخذت هذه القصيدة الجديدة إطارها بين فونتنبلو وقرساي .. بين ساحات الصيد وحفلات الليل .. وكنا في صيف ١٦٦١ . واشتد القيظ في خلال يونيه ويوليه . وعاش البلاط ، الذي تبع الملك إلى فونتنبلو ، في أعياد متصلة .. بين البساتين والجنات والغابات .. وكانت مدام هانريدت دانجلاتير ، التي اقترنت حديثاً بشقيق الملك ، هي روح هذه الحفلات ، ومثيرة كافة المسرات . كانت تذهب في مركبتها كل يوم للسباحة ، وتعود على حصانها ، تتبعها سيدات البلاط ، في ثيابهن المزركشة البهيجة ، بصحبة الملك وشباب القصر . وبعد العشاء ، يتزهون على ضفاف القناة ، هزيعاً من الليل ، على نغمات الكمان ...

وشاع أن الملك هائم بزوجة أخيه . وكان قد مضى على زواج لويس بماري تريز عام واحد ، وهي مخلوقة دميمة ، لا ظرف فيها ولا ملاحاة . ومع ذلك كانت حاملاً ، حملاً متقدماً .. فبحث الملك عن أسباب اللسوى في غير الحياة الزوجية . فما أشدّ أن يلقى يبصره على هانريدت هذه « دوقة أورليان » ، التي بدأ بازدرائها في أول الأمر .. وعيّر أخاه قبل اقترانه بها (وكانت نحيفة جداً) بأنه سيتزوج حزمة من العظام ! ..

لكن بضعة أشهر كانت كافية لأن تحول الفتاة الهزيلة العجفاء ، إلى

عبلة هيفاء . ولعلها بجثت ، كالملك ، عن أسباب للسلوى في غير الزواج ،
فقد كان زوجها أثقل القرناء . . . مالت إلى الكونت دى جيش ، الذى
وصفته مدام دى لافاييت بقولها : « . . . كان أظرف أهل البلاط شكلاً ،
وأدمهم خلقاً ، وأشدهم جسارة ، وأشجعهم فؤاداً . . . يجمع الرفعة إلى الرقة ،
والشهامة إلى الكياسة »

كان هذا الولع السرى بهذا الرجل الجميل من العوامل التى كست
عظام هانريدت لحماً ، ونضرت لها حسناً ، إلى حد أن الملك كان يراها تزدد
كل يوم فتنة . . . فيقول : « أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى ! » . . .
وراح يتعرض لنار عينها النجلاوين السوداوين . . .

أما هى ، وإن كانت مخلصه فى حبها للكونت دى جيش ، فقد سمحت
للملك بالتمسح بها ، والتودد إليها . . . وتذوقت لذة الانتقام من الملك ، لتوقحه
عليها يوماً ما ، ومجافاته إياها . . . وربما كانت ، فى تحولها عن دى جيش ،
واستسلامها إلى زوج أخيها المتهب شغفاً : واقعة تحت تأثير ملك لا يقاوم
يومئذ سلطانه على الجنس اللطيف الضعيف ! . . . ولم يفت لويس أن
وراء غندرة هانريدت ألواناً من عدم الوفاء . . . فى حين أنه كان يريد أن يحب
من يحب . يريد من خليلته عطاء تاماً خالصاً ، لا يقبل ما دون ذلك .
الإخلاص فى العشق عنده فوق الجمال ، وقبل الدلال . ولم تسكن هى فى
الحسن من آياته . لكن ما توسمه فيها من ذبذبة ، وما خشيه من فضيحة ،
ألقيا به فى غراميات أخرى . . . لأنه كان يجزع أشد الجزع من الفضيحة . . .
الويل له من اللغظ الذى يدوسى فى البلاط ، وربما فى جميع أنحاء المملكة .

إذا عرف عنه تعلقه بزوجة أخيه!.. وكانت أمه قد حذرتَه، ثم أنذرتَه،
ثم ردعته عن جريه وراء الزوجة الشابة... هذه الأسباب كلها كانت كافية
لأن يحوّل هذا الزوج التعس بصره نحو: «لويز دي لا فالير»: إحدى
وصيقات شرف زوجة أخيه!..

لم تكن لويز هذه بالساحرة الجمال ولكنها كانت كريمة سيد صغير من
أهل «تور».. وفي وجهها آثار جدري خفيف، مثل لويس.. ولعل
اشتراكهما في هذه الصفة قرب بينهما، فاشتغلا!.. وكانت فضلاً عن ذلك
ناصعة البشرة إلى أقصى حد، رموشها ثقيلة، وفها واسع، ولا تكاد
تستطيع إخفاء بعض العرج!.. وفي مقلتيها أثر بكاء من شقاء. نظرتها
حزينة، وتقاطيعها قاسية، وفي مط شفيتها مرارة.. كذلك صورها
فنانو عصرها. أما أجمل صورة لها فهي أشد صورها جاذبية (ويراها قراء
«عصر رقب» على غلافه).. وإذا لم تكن أقربها شيئاً بها، فهي على الأقل
أشدها تأثيراً، وأبلغها تعبيراً عن نفسية لويز دي لا فالير.. رسمها الفنان
«مينيار»: تمثلها وهي ترفع، بحركة خفزة، قطعة من قماش سقطت عنها،
كانت تخفي بعض نحرها. وهنا يتجلى لنا جمال عينيها الزرقاوين الساحرتين،
فيحجب عنا كل عيوبها الأخرى، وينسينا إياها. شهد لها الأسقف دي
شوازي، وهو من ألبق الخبراء في شؤون النساء، بقوله: «إنها لم تكن
من أولئك الجميلات الكاملات الجمال، اللواتي نعجب بهن غالباً من دون
أن نحبهن.. بل كانت على تلك الرشاقة الأجل من الجمال، والتي كآنى بها
قد خلقت خصيصاً لها».

هذه الفتاة التي ضنت عليها الطبيعة بما حبت به كشريرات من أترابها ،
هذه المخلوقة المغمورة ، الخجول ، لاح أنها ، هي أيضاً ، جعلت لتسكون
خليلة على هوى الملك ..

لم تسكن من دوحة مجيدة ، فعرفت جميل سيدها ، وتعلقت به ، هو ،
الذي تنزل والتفت إليها ! .. أما كيف كان ذلك فأمر عجب .. فإن زوجة
أخيه أشارت عليه بالتظاهر بالميل إلى وصيفتها لويز دي لا فالير ، ليبر
تردده عليها ، ومقامه بقربها .. فكانت تلك الفتاة ، رضيت أم كرهت ،
تلعب دور حارسة الهوى وحاملة الشمعدان ! ..

ومع ذلك وقع ما لم يكن في الحسبان ، وما لم يكن يخطر للبلد على بال :
الحارسة الذليلة ، جعلت تستبد بالفؤاد ! . فتخبّط الملك في شباكها . هام
بتلك التي أراد ، وأرادت خليلته ، التستر على حساب سمعتها .. هام بها
وتخلى عن شريكته في المؤامرة التي فيها من القسوة ما فيها .

وبداهة ، ليس لنا أن نسأل طيبة ولا وفاءً ولا عهداً من ممثلي هذه المأساة
العاطفية الصغيرة . فنحن هنا في بلاد الحب ، حيث لا يعرفون شرعاً ولا فرعاً
ولا إيماناً . ليس لنا أن ننتظر من أصدق المحبين إلا ضعفاً على ضعف ،
وخذلاناً على خذلان ، وخيانة على خيانة ، وقسوة على قسوة .. وفي هذا
الظرف ، كان الحب الجبار يعبث مرة أخرى ، ساخراً من ضحاياه ، لآعباً
بهم ما طاب له ، على الرغم من نياتهم ومشاعرهم . فالملك لم يتخرج مطلقاً
من خيانة زوجة أخيه ، التي خيل إليه أنه يحبها .. وهي تخون في وقت
واحد زوجها ، وتخون عشيقها الكونت دي جيش ، وتخون وصيفتها

لويز : إذ جعلتها تظن أن الملك يحبها . . . ولم تكن لويز ، وهي تعيش في جو من الدسائس والفتن وثرثرة النساء ، لتجهل ما يراد منها ، ولم تكن لتردد في أن تؤدى ما يطلب إليها . وكانت على أى حال ، تعرف أن البلاط كله يقول إن الملك يعشق سيدتها . . . كان الملك عشيق زوجة أخيه على رؤوس الأشهاد . فلم تحل معرفتها بذلك دون أن تستولى على العاشق ، وتأخذه عن عشيقته ، التي هى أيضاً مولاتها ، والمحسنة إليها ! . . .

وكان عذرها الوحيد ، وعذر الملك : أنهما تحابا . وهذا هو عذر الحب الوحيد ، وللحب قانونه النافذ ، وأحكامه التي لا تقبل نقضاً ولا إبراماً . . . وليس الهوى هوى إذا استطاع المرء له قسراً .

بيد أن لويز ، الحصيف ، البصير ، زعم أنه منذ الآن صار سيد قلبه ! . فهو لم يبحث ، قرب لويز لافالير ، أو قرب زوجة أخيه ، إلا عن نزوة طارئة ، وبدوة عارضة ! . فهو يتسلى بذلك ، ويروِّح عن نفسه ، بين مهام الدولة الجسام . . . لأنه ، حتى في ذلك الزمان الباكر ، يعد نفسه لمهمته عبداً . قبل كل شيء : فمهمة المروءة ! . . . ولا يجوز أن يكون الحب للسلطان إلا هواً . كان هذا رأيه ، يقول به لدى كل من يستطيع نقله إلى الرأى العام . وفي اللحظة التي بلغت فيها علاقته بلويز لافالير مداها ، في يناير ١٦٦٣ ، كانت أغاني شعرائه تُردد في الحفلات قائلة :

« الراعى وإن كان في سن الشغف والفتنة ، سن المسرات والملاذات ، فلا تزعم أن العشق يغويه ويطويه ، فهو يعود دائماً إلى خرافه ، ويرجع نجاة إلى دأبه وجهاده . . . لن يستمرى المقام ، وينام تحت الشجر ، أو ينسى

نفسه قرب راعية فاتنة ، بحيث يغفل عن الذئاب ! ... »

وهو في هذا الصيف المحرق من عام ١٦٦١ ، وبين كل هذه الغوايات : من جمال الطبيعة ، وسحر النساء ، وتيسار الملذات ، أبعد ما يكون فعلا عن أن ينسى الذئاب الذين يتربصون بالدولة ، بل هو أشد ما يكون انشغالا : يعد العدة لطرد وزير ماليته وحارس بيت المال ، فوكيه ، ذلك الوزير الذي راكم ثروة طائلة بالحق وبالباطل وكان نصيراً عظيماً لأهل الأدب أمثال : مولير ، ولافوتتين ، وبليسون . فلم يكن طرده من الحكم والقبض عليه من هيئات الأمور . . . إن الملك يعرف وزيره قوياً مكيناً ، ويخافه الخوف كله ، ويريد أن يحتال ليجد إليه منفذاً ، قبل أن يجرؤ ويمد إليه بسوء يداً . فضلاً عن أنه ، مهما بدا من هدوء أوربا في هذه الآونة ، يتوقع اشتبا كآ عاجلا ، لا مندوحة معه لفرنسا عن أن تكون شاكية السلاح . فعمل ، مع وزيريه كولبير ولوتلييه ، على تضخيم الدخل ، وتسليح الجيش ، واختزان المؤن والذخائر . . .

في هذه اللحظة نفسها ، التي يعني فيها بكل هذه الشؤون العاجلة ، الخطيرة ، هام بحب فتاة ريفية مسكينة ، وصيفة شرف ، تكاد تكون لزوجته أخيه خادماً ! . . . تعلق بها ، لأنه أحس لساعته أن الفتاة تحبه . هذا الحب ، هذا العطاء بلا حساب ، له في عينيه قيمة لا تقدر .

أخيراً ، ها هو ذا سيحب كما كان يتمنى من زمن طويل ، حباً خالصاً ، مع استسلام تام . . . وسيكون محبوباً ، لا لأنه ملك ، لكن لأنه هو ، لويس ! سيكون محبوباً مثل هؤلاء الشبان المختالين الفخورين ، الذين يسرون

في الأرض مرحاً بعد ما أطاحوا بعقول نساء بلاطه ، مثل : « الكونت
دى جيش » ، و « فاردس » ، و « لوزون » .. مثل دون چوان ! .. لأنه
إذا كان ثمة شيء حق لا مرية فيه ، في هذه المغامرة الغامضة ، فهو أن لوزين
أحبت لويس بمجامع قلبها ، وأنه بادلها حباً بحب .. أتى لهذه المسكينة أن
تقاوم تقرب هذا الفتى المزهو ، في الثانية والعشرين من عمره ، أعظم فرسان
البلاط ، وأرشق راقص ، وأشجى محدث جذاب ، وفي حديثه أحياناً من اللذع
اللذيد ، لا يباريه - كما يقول سان سيمون - في الرواية إنسان .. هكذا
كان هذا الملك في ذلك العصر ، أو كان هذا بعض الملك الشاب .

إليك اعتراف « مدام » - زوجة أخى الملك ، وحببته السابقة - تفضى
به إلى دوقة دى شقرين : « تصورى أنهم يقولون إنه لم يعد في الدنيا عنده
غير تلك المخلوقة وحدها ، وأنه ينظر إليها بحب وشغف وهيام ، في آخر
لحظة كما في أول لحظة من زيارته إياها عادة بين السابعة والثامنة مساء . وهو
يضحي من أجلها بكل شيء ، وكأنه لم يعد متعلقاً بسواها .. وهو يحوطها
بالوف وألوف من العنايات والمكرمات .. وبعد ، فإذا صدقنا كل ما تقوله
مدموازيل دارتيني (كاتمة سر لوزين دى لا فالير) ، كان الملك في حبه
لا يجارى ! .. » .. فلما استدركت الدوقة دى شقرين سائلة : « كيف ؟ ..
حتى ولا الكونت دى جيش ؟ » .. أجابتها السيدة : « إن الكونت
ظريف .. ولكن ليست له في الحب حرارة الملك ! .. »

إن هذه الصورة ، قطعاً ، غاية في الجمال ، وإن لم تكن طبق الأصل .
غير أنه من المحتمل تماماً أن نساء ذلك العصر ، وخاصة لوزين دى لا فالير ، كن

يرين الملك على هذا الغرار .. لقد أبدع هذا الملك طرازاً جديداً من « العاشق » .. زود قصص عصره ومآسيه ومهازله بطراز جديد من الرجال الذين خلقوا للهيام بربات الحجال ! .. ولم يعد الطراز الذي أبدعه ، هو ذلك البطل العتيق الفصيح الثرثار ، المحلق في جو جنوني من الأوهام والأشعار . بل هو : جندي مغوار ، يعود من ساحة القتال ، أو يستعد للعودة إليها ، وما زال يرتدى سترتها الخشنة ، وينتعل حذاءها الطويل الثقيل .. وهو ، على الرغم من هذه الخشونة ، يعرف كيف يكون رقيقاً ، حنوناً ، مهذباً ، جذاباً ، يمزج الروح بالحب ، ويسمو بعاطفته فوق عواطف المتحذلقين المتصنعين جميعاً .. في هذا ، كما في غيره ، كان لويس الرابع عشر ملهماً عظيماً .. عرف كيف يوحى بقصيدة الحب لخليلاته ، كما يوحى بها لشعراء عصره ، في وقت واحد . تكفي منه التفاتة ، أو لمحة ، أو حركة ، أو كلمة ، يلقيها أحد مصوريه ، أو مهندسيه ، لتكون إلهاماً يتمخض بغرة من الغرر ، أو درة من الدرر .. وهو - الملك - يزهو في « *Mémoires* » بأنه : « جعل أجمل عبقریات زمنه : تعمل ، وتدأب ، وتفتن ، وتبدع ! ... »

وكذلك حمل لويس على العمل والأمل كل نفوس اللواتي أحبينه ، وأشعل مخيلاتهن .. حتى لويز دي لا فالير ، هذه الريفية المعزولة عن روائع العزة والسؤدد ، التي لم ترد أن تكون إلا عاشقة متيِّمة ، رأت فيه أكثر من عاشق لها ، رأت فيه الملك ، فأحبت فيه فرنسا كلها ، لأنه كان مجد فرنسا كلها ..

ولا بد من تبيان هذا لتفسير الهوس الغرامي الذي أصاب تلك الشقية ،

بحيث جعلها تواجه كل الفضائح ، وتصمد لها . . . هذه المقتونة الوهلي ،
الخجول عادة ، المفرطة في التحرز ، أصبحت زعيمة بأشنع ضروب الجرأة
إذ أحست أن حبه مهدد ، في خطر . . . ياللتفاني على حساب كرامتها ! . .
لقد تحملت ما لم تتحمله محظية ملكية قط . . أليس لدينا مثل على تهورها
وهي في ساحة الفلاندر ، أمام البلاط والجيش ، وتحت عيني الملكة نفسها :
دفعت بمركبها تطارد الملك ، متعطشة إلى أن تسترده ، تسترد العشيقي
الذي توشك امرأة أخرى أن تسلبها إياه ؟ ! أو لم تهرب مرتين من دير
« شايو » ، في لحظة من لحظات يأس الهوى ، أو في فورة من فورات الغيرة
المضنية ؟ ! أو لم تعاند ببقائها في البلاط ، حتى بعد أن قاطعها الملك ، راجية
دائماً أن تستعيد هواه . وتحملت مدى عشر سنوات أن ترى خصيمتها
الفائزة ، مؤملة أمل إبليس في الجنة ، حتى إذا ما جاءت الساعة التي خانتها
فيها شجاعتها ، ولم تعد تطيق على هذا صبراً ، انطلقت : تجتاز ، لليرة
الأخيرة ، عتبة الدير ، ليطبق عليها أبوابه إلى الأبد ؟ . . كيف ، إذن ، يمكن
الشك في عواطفها ، وهي التي ظلت ، طوال هذا الزمن المديد ، على
خشب من التعذيب ، والنكد ، والغيرة ، والهوان ، تؤثر جوار الملك
الهاجر على جوار الله ؟ !

أجل . . لقد ظلت باقية في البلاط ، تقنات بالشجن ، إلى جانب مدام
دى مونتسبان ، المرأة التي سلبت منها قلب الملك . . بقيت في البلاط ، لأنها
لا تستطيع أن تعيش إلا في جو يتنفس فيه المليك الحبيب . . وإذا كانت
قد عادت من دير شايو ، واتخذت ثانية مكانها من القصر ، لا من القلب ،

وقضت ثلاث سنوات أخرى إلى جوار خصيمتها ، فذلك لأنها كانت
تمزق لوعة وصبابة ، ولا تقنط من استرداد الغادر الهاجر ! ..
وزعمت ، لحظة من دهرها ، بكل هذا التفاني والوفاء ، أنها لامست
قلب عشيقها السابق ، بشهادة مؤرخة عصرها ، المركيزة دى سقينييه :
« ... بكى الملك أحر بكاء ، وبعث إليها وزيره كولبير ، يرجوها ، بالحاح ،
العودة إلى فرساي ، لأن لديه ما يقوله لها . فجاء بها مسيو كولبير . فحدثها
الملك ساعة ، وبكى بكاء مرأ . . . وكانت مدام دى مونتسپان (العشيقة
الجديدة) إزاءها ، مفتوحة الذراعين ، دامعة العينين . . . وبدا هذا كله لغزاً
معماً . . . البعض يقولون إنها ستبقى في فرساي وفي البلاط ، والآخرون
يزعمون أنها ستعود إلى الدير . . . وسوف نرى » . . . وبعد بضعة أيام ،
ختمت المركيزة روايتها بهذه السطور الماكرة : « ... أما السيدة دى لافالير
فنحن يأسون من إعادتها إلى الدير ، لأنها في حنايا البلاط خير منها بين
جدران المعبد . . . فلا حيلة إلا التسليم بتركها حيث هي . . . »

والواقع أنها مكثت في القصر زمناً آخر طويلاً ، لا تستطيع البرء من
داء هذا الحب العياء ، متحملة أشق الآلام ، لكي تحظى ، كل يوم ، برؤية
ذاك الذي تحبه ولم يعد يحبها . . . إنها كانت ولا ريب شقية غاية الشقاء ،
تستحق الشفقة كلها . لكن أيمكن أن يقال إن الملك كفّ تماماً عن حبه
لها ؟ إن ما نعرفه ، على أى حال ، هو أنه أبدى نحوها ، حتى النهاية ،
لا الرعاية وحدها ، بل أشد الحنان أيضاً . . . شوهد يستقبلها ، وقد عادت
من دير شايو ، مغرورق العينين ، فحدثها طويلاً . . . ولا شك في أنه قال لها

أرق الكلام ، وأشدّه تأثيراً وإقناعاً ، بحيث ارتضت البقاء ..
وبعد ثلاث سنوات ، عندما اعتزلت نهائياً ، في دير الكرملين ، لكيلا
تخرج منه أبداً ، لم يكد الملك يفترق عنها إلا بعد مشهد مؤثر دامع .. قال
أهل القصر : « ... وكان ، بعد ذلك بساعة ، ما زال حمر العينين ! »

* * *

لم يكن لويس إذن فظاً غليظ القلب . وإن كانت لديه ، بلا شك ،
فكرة عالية جداً ، عن نفسه ، كملك ، وتقدير عظيم لمقامه ، بحيث يعتقد أن
الواجب يقضى بالتضحية من أجله عن طيبة خاطر . كان إنساناً ، شهماً ،
حساساً ، إلى حد لا يرضى معه أن يؤلم قصداً امرأة هامت به ، ولم يستطع
أن يتحلل منها إلا بعد القطيعة الظاهرة بوقت طويل .

وكل ما يروى عن خشونة لويس وجفوته ، لا ينهض عليه في التاريخ
دليل . زد على هذا أن غلطة الذين يحكمون عليه حكماً قاسياً ، هي أنهم
ينسون التزاماته نحو « مهنة الملك » . فهو لا يستطيع أن يكون بمجامعه لمن
يجب . فهذا يكلفه ما لا طاقة له به . وهو لا يستطيع التحرر من البروتوكول .
حتى في مسراته يلزمه البروتوكول ألا يستمتع بها إلا في ساعة محددة .
هذا ، فضلاً عن أنه كان مضطراً ، ذراً للرماد في العيون ، إلى أن يخفي غرامه
الخائن ، تحت قناع من الجفاء والتحشم .. فليس لنا أن نغفل أنه رجل
متزوج ، وهو نفسه يذكر ذلك جيداً ، لم ينس يوماً واحداً ، ما لم يكن
في جيشه ، أو ما لم يكن في مرضه ، أن يؤدى واجباته نحو الملكة : لم يهجر
مخدعها أبداً .

والحق أن الذريات اللاحقة أبدت تسامحاً زائداً مع لويز دي لا فالير ،
بالنظر إلى ذلك المبدأ الرومانتيكي ، الذي يجعل للحب الحقوق كلها . وهي
نفسها كانت شديدة الاقتناع بذلك ، حتى إنها ، في أزمتها بأسها أو نوبات
غيرتها ، لم تتراجع ، أو تتخرج من إعلان حقوق حبها المزعومة وإثباتها .
كانت تعلم أن الملك يرتاع من الفضيحة والضجة و « الشوشرة » ، ولذلك
راحت تجرحه ، وتراكم المثالب والمطاعن ، مؤملة أن يرده إليها خوفه من
المساءة والعار .

وهذا ما يفسر هربها مرتين من البلاط ، مما كان له دوى عظيم . وكان
الملك لا يشك في أن هذا كله ليس إلا مفتعلاً ، وأنها لا تلبث أن تعود ،
بمجرد ما تنبس شفتاه بكلمة حنان . كان لا يعتقد مطلقاً باستعدادها الديني
بحيث تعزل العالم ، ولهذا وضع العقبات في سبيل دخولها الدير . ولما أصبح
عزم الفتاة اليأس قاطعاً ، أحاطت كفارتها بمشهد مسرحي هجومي ، ساء الملك
كثيراً ، أرادت به أن توقع الملام علناً على منافستها وحببها معاً ، لتلصق
بهما تهمة الزنا المزدوج . وعلى ذلك نرى أن ما قادها إلى الدير هو مزيج
عجيب : من الغيرة ، ومن السخط ، ومن الذل ، ومن الانتقام .. حتى وداعها
القصر كان رناناً . أحست الحاجة إلى أن تتراعى على قدمي الملكة ، وتسألها
صفحاً وغفراناً ، أمام البلاط كله ! ...

وبداهة أن لويس الرابع عشر زهد آخر الأمر في هذه الخلية
الملحاح ، الكثيرة الضجة ، الثقيلة المقام .. فقد كان ينتظر من هذه المتيمة
المحرومة كل ما يخطر أو لا يخطر بالبال .. سبحان الله ! .. يا للتناقض

الأبدى الذى يتنازع القلب البشرى ! .. إنه لم يتجه إلى لويز دى لا فالير إلا ثقة منه بأنه يحب لذاته ، وبأنه يجد ملجأً روحياً يأوى إليه .. وها هو ذا الحب المخلص نفسه ، مجرد عن النفعية ، هذا الحب الذى طالما حلم به وتمناه ، يصبح أشد ما يفصله منها ، ويحوّله عنها ! ..

ورأى ، على الأيام ، أن تلك العاشقة الواهية ، التى لا تريد أن تكون إلا عاشقة ، صارت عبثاً باهظاً ، ينقض ظهر شخصيته العامة .. فهى تشهد الناس عليه ، وتورطه بلا انقطاع . ثم هى تنازع الدولة مليكها ، تريده خالصاً لها ! .. وأبدت عدم اكتراثها بـ « محمد » الملك ، وهو أعز ما عليه فى الدنيا ، وبعمله الشاىخ كرئيس الجيش الأعلى ، والبناء الأعظم . إنها لم تكن ملهمة الأشياء العظيمة ، ولا مغدقة آلاء الحمد والثناء ، ولا المثيرة ، المتحمسة ، الناصحة لأعمال الكبر والزهو والفخر .. على حين أن الملك لا يعيش إلا من أجل هذا ...

وإنه لمن الأسباب التى حملته على هجر لويز دى لا فالير ، استسلامه لمدام دى مونتسبان ، تأخذه منها ، على عينها .. تلك المرأة الشائقة : « أتنايس » ، التى لاح له أنه وجد فيها روحاً ملكية حقاً ، ونفساً على مثال نفسه ! ..

فرنسواز - أتنايس دي روششوار ، مركيزه دي مونتسپان : آية
من آيات الأبهة والحسن الظافر ، لاتقاس بها العشيقة المهجورة ، لوز
دي لاقالير ، المتواضعة ، التي كانت تود لو أخفت هناءها ، وحجبت
حظها ، عن حسد العيون ..

فاسمع إلى « پريمى فيسكوتى » ، ذلك الإيطالى الأفاق ، الذى قضى
شطراً من حياته فى بلاط فرنسا ، وعرف مدام دي مونتسپان عن كسب ،
كيف يصفها لنا : « ... شعرها أشقر كالذهب ، عينها نجلاوان ، زرقاوان ،
بلون السماء .. الأنف أقى ، حسن الشكل .. الشجر صغير ، أحمر كالعقيق ..
الشايا كأجمل ما يكون اللؤلؤ المنضد .. مجياها رائع الكمال ، وجسدها
مدهش التكوين ... » .

وثمة شهود عدول يزكون هذا الإطراء ، منهم « سان سيمون » الذى
رآها : « ... لطيفة ، خلاصة .. تخفى رقة شمائلها ما فطرت عليه من التعالى
وحب الظهور .. لها طابعها الذى يميزها عن سواها ، فلا سبيل إلى
محاكاتها فى شىء ، أو تحديها .. »

كان الإجماع معقوداً على أنها أنصع بشرة من لاقالير ، وأن شعرها
أشقر جميل ، ويديها بضتان ناعمتان ، وذراعيها مرمريتان ، مما كانت
المعشوقة المهجورة محرومة أكثره .

والحقيقة أن مونتسبان العظيمة كان فيها الكثير من الغايات .. وهذا هو السبب في أنها لم تسكد تعرض للبلك حتى اتصلت به ، ولم تسكد تتصل به حتى أمسكت بتلابيبه ، ولم يكذبهم بها حتى شغفته حباً ، وشغفته عن طريق الحواس ...

* * *

إذن فهو البدن يتهاوت على الاستمتاع بهذه الشائقة أتائيس .. والتلبيح يغني عن التصريح .. وكان لويس ، عند ما همَّ بها وهام ، قد أشرف على الثلاثين ، فهو في عزة رجولته ، وصوله طبيعته .. إن غرائزه الداعرة ، التي كبحتها تربية صارمة ، انطلقت حينئذ من عقالها ، لا تكاد تقف في سبيلها إلا تلك الخشية من الفضيحة ، وذلك الوسواس الدائم على لياقة الملك ، وهما الصمامة التي تسكبت ذلك الطبع الحامي ، وتحول بينه وبين الانفجاء بهوس الهوى ، وتحول بالتالي دون اندفاعه وسقوطه في وهدة من التزعزع والفوضى ، لا قرار لها ...

كان لويس ، في تلك الآونة من حكمه ، خاصة ، شغوفاً بالشؤون العسكرية .. مشغولاً دائماً بفرسانه ، وأزياء فرسانه .. لا يحلم إلا بالاستعراضات ، والمناورات الكبرى ، التي يدعو إليها سيدات البلاط .. كان لا بد له من عرض سطوته وسلطانه أمام النساء : يحشدن في المركبات الفخمة ، ويسوقهن معه إلى ساحة الجيوش ..

مارسى (إله الحرب) يريد أن يرى فينوس (إلهة الجمال) في معسكره .. قبلات على قصف المدافع .. مر اعيد غرام قد تقطعها طلقة ! ..

وفي هذا وذاك يكون ، في جوه الملهب ، ينشد الجوى اللهب ...
فلنستمع إلى « لاجراندمدمازيل » ، تصف لنا تلك المعسكرات
الأنيقة ، يقيمها البلاط من خلف الجيوش .. لنرى كيف كان ذلك ، في حملة
١٦٦٧ ، وقد بدأ هيام الملك بمدام دى مونتسپان : « ... وصلنا ليلا إلى
حيث الجيش معسكر في قرية تدعى : « كوتيش » .. فنزلنا في بعض
الأهراء التي طليت جدرانها . وبدأت الملكة تلعب . وذهبت أكتب خطاباً
لأورخه من المعسكر .. واشتعلت النار في مدخنة المطبخ ، مما أفسد العشاء .
واستمر اللعب سواد الليل .. ونمت على كرسي . ونامت الملكة في عربة
الملك .. ونام هو في إحدى خيام الجيش ... »

وكانت تجرى باستمرار ، خلال تلك الرحلات ، مشاهد مثيرة ،
مضحكة ، فلنسمع ثانية إلى « لاجراندمدمازيل » تحدثنا ، ونحن في
الفلاندر ، ولكن بعد ثلاث سنوات ، أي في مايو ١٦٧٠ : « ... الساعة
الأولى من الصباح . وجدنا بيتاً حقيراً ، مكوناً من حجرتين في بركة ..
وضعت الملكة قدمها على الأرض ، مستضيئة بشمعة ، تحملها لها مدام
دى بتون ، بيد ، وتسندها بيدها الأخرى .. وكنت أتبعها ، حاملة ذيل
ثوبها .. فغاصت ساقاي في الوحل حتى الركبتين ، فقالت الملكة : « يا ابنة
عمي ! إنك تشدينني ! .. » فأجبته : « ياسيدتي ! .. لقد سقطت في
حفرة ! .. فانتظري خلاصي منها ! .. » .. وخرجت مبلة ، ولا حيلة لي في
تبديل ثيابي ، فتركتها تجف على بدني .. وانزعجت الملكة مما نلتني ، فقال
الملك : « لا بد من الانتظار حتى الصباح ، والاستراحة في المركبات » ..

وقد كان : صفت العجلات ، وأوينا إليها .. وتمددت قليلا .. ولكني لم أستطع النوم ، إذ كان الضجيج مروعا ... »

ولم يكن هذا كل شيء : ففي الغداة ، لم تكن المشكلة مشكلة النوم بحسب ، بل كانت مشكلة الطعام أيضاً . ويالها من مشكلة خطيرة تعرض لها راويتنا ، شاهدة العيان ، فتعطينا فكرة محزنة عن « التموين » في الزمن الغابر : « ... جاءوا يقولون لي : « الملك والمملكة سيأكلان ! ... » .. فحملوني على كرسى ، لأن السير كان يستحيل عليّ ، وإلا غصت في الوحل ... وكانت

الأكلة هزيلة : « تارات الملكة شيئاً من المرق ، وشربت ما بقى بعدها في الأناة » ثم عرضت لنا مشغولية النوم ، المشغولية الكبرى ! .. قالت : « ... وجدت الملكة محزونة أشد الحزن ، تقول إنها ستمرض إذا لم تنم .. وتساءلت : « أى معنى لمثل هذه الرحلات ؟ ! » .. فقال الملك : « هاهم أولاء قد جاءوا بمراتب » .. فقالت الملكة : « ياله من أمر شنيع ! .. ماذا ؟ ! .. أنام جميعاً معاً ؟ ! .. فقال الملك : « .. أى ضرر في أن نرقد على مراتب ونحن بكامل ثيابنا ؟ .. إني لا أرى في هذا ضيراً ولا غضاضة ! .. واسألي بنت العم ! .. فهي في مثل هذه الشؤون الحكم العدل » .. فلم أجد ما أقوله في منام عشر نساء ، أو اثنتي عشرة ، في غرفة واحدة ، مع الملك وأخيه .. فرضخت الملكة .. وعندئذ انبرت مدام دى تيانج تقول ، وقد طرق سمعنا خوار الأبقار ونهيق الحمير في إسطنبول وراءنا : « لعمرى إن هذا يبعث في التقوى ، إذ يذكرني بمولد سيدنا المسيح ! » . قالت ذلك بلهجة حملت الملكة على الجهر بالضحك ، مما سر الملك ، الذي كان غاضباً من تبرمها وسخطها .. ثم .. نمنا .. »

فلنذكر أن بين النائمين والنائمات عاشقين . كانت مدام دي مونتسپان
هناك ، في الإسطنبول ، أقرب ماتسكون إلى الملك ، هي وأختها مدام دي تيانج !
هذه صورة عرضنا لها ، لكي يتغلغل القارئ الشرقى في أحوال فرنسا
القديمة وأخلاقها ، ولكي تساعدنا الصورة على إدراك لون من ألوان حميا
الهوى ، التي كانت تسرى يومئذ في عروق لويس الرابع عشر . .
إنه لم يكن الراعي الرقيق ، الذي ينام تحت شجرة ، ويضرب في مطلع
الفجر لحبيته لحن الهوى على زمارة . . إنه كان الفارس المغوار ، الممتلىء
بنشوة الحرب والحب ، يغتم بين قصف المدافع ودخان البارود لحظات
عشق مغامر على قش الإسطبلات ، أو سابلة الزرائب ، أو في بعض
الأهراء في الخلاء . . .

* * *

ولكن هذا العاشق الفاسق لا يستطيع أن ينسى طويلا أنه ملك فرنسا .
وهذا المحتلس الهوى يريد أن يكون بطلا . لقد كان مارس ، إله الحرب ، أو
أبولو ، إله الشعر ، المتوجّج بالغار . . وشعره المشبوب في فينوس ، إلهة
الجمال ، لا يمكن أن ينتهى إلا على سرير من الأعلام المعقودة بالانتصار ،
أو في مركبة تشق ، في ضحى الشمس ، غبار الجيوش وضرب النار . . .
بل نستطيع الذهاب في القول إلى أننا إذا لم نر في تلك العاطفة العاصفة ،
التي تساور لويس الرابع عشر لمدام دي مونتسپان ، إلا نوبة عشق بدنى ،
كنا من المخطئين . فهو لم يكن يجب فيها محاسنها الجسدية وحدها ، بل كان
يتذوق حديثها ، ويستطيب دعابتها ، وخفة روحها . . كانت طويلة

اللسان ، هجاء ، لبقة . ولا يعزب عن بالنا أن الملك إن لم يكن عاطفياً خالصاً فهو صبّ ، يحب الحب ، ويتأثر بالعواطف الجميلة . أحب يقيناً مدام دي مونتسپان ، وإن كان حبه إياها من نحو آخر ، غير حبه لقالير ومارى مانشيني . ولكنه أحبها وكفى . . . وعندنا الدلائل على أنه كان يتألم من أنها لم تبادله حباً بحب ، وصبابة بصبابة .

كتبت الأميرة بلاتين تقول : « إن المونتسپان مخلوقة ملؤها الأهواء الشعواء ، لا تستطيع أن تكبح لنفسها نزوة ، أو تكفكف من ميلها إلى كل ضروب التسلية واللهو . . . وهى تنفجر من بقائها مع الملك على انفراد . . . وهى لا تحب الا حب نفعية وطموح ، ولا تفنى بشخصه فى كثير أو قليل . . . ولكى تسرى عنه جاءت إليه بدمام دي ماتنون ، لكيلا يلحظ أنها عنه لاهية . . . فى حين أنه ، على كثرة حبه الحياة المعزلة ، يتمنى لو قضى وقته إلى جانبها . . . وهو يعجب عليها دوماً أنها لا تحب كفاء الحب . . . ونشأ من ذلك بينهما اختلاف وتنافر وشجار . . . »

لئن كان علينا أن نقدر ، فى هذا الوصف ، أثر الغيرة من محظية الملك ، فلا شك أن فيه جانباً كبيراً من الحقيقة . ومانستنتجه منه خاصة هو تعلق الملك الشديد بدمام دي مونتسپان .

وبديهى أن حبه لم يعد الحب الحي الخجول لشباب فى الثامنة عشرة ، الحب الخيالى القصصى ، الحب العذرى ، الذى حمله لمارى مانشيني من قبل . . . ولا الحب المتفانى الحنون أحياناً ، المتهور الغيور أحياناً ، الذى حمله للويز دي لاقالير . . . كانت عواطف الملك نحو مدام دي مونتسپان هى شيئاً أشد من ذلك كله تركيباً وتعقيداً . شيئاً مكنوناً بادئاً ، كما رأينا ، من

ذلك الاشتهاء الجامح . . ثم من الكبرياء . فهذه المحظية جمعت فأوعت : فيها
من ذلك الإشراق الساطع الذي يبهر الأنظار ، ومن تلك الفصاحة الخلافة
التي تفتن الألباب ، ومن ذلك التبرج والترفع اللذين يدعوان إلى المهابة ،
وفيهما من خفة الروح ومفاتيح الفكر ، كما لو كانت شاعراً ! .

للك إذن أن يقر عيناً بالحظوة بها ، ويفخر بغزوها . ويدل بها على
جميع الرجال . . ويجعلها تعجب إلى جانبه بمعجزات الفن والإبداع ،
يتسكرها في قصور فرساي ، ويجعل المواطنين والغرباء جميعاً يعجبون بها ،
هي : آية الجمال الفرنسي والذوق المصنفي ، التي وقع عليها اختيار مليكها ،
فشغفته حباً . .

إليك ما كتبتة مرة المركيزة دي سفينييه إلى كريمتها في إحدى رسائلها ،
فوصفت عودة « أتنايس » الجميلة إلى القصر ، بعد اعتكافها لتضع واحداً
آخر من أولادها العديدين : « . . . إن جمالها شيء يحير العقول . . خصرها
عاد واهناً دون نصف ما كان عليه من السمن ! . . وليست بشرتها بأقل
نضرة ، ولا عيناها بأقل لمعاناً ، ولا شفتاها بأقل تورداً ! . . كانت تخب
في ثياب من شغل الإبرة الدقيقة ، وقد عقدت على شعرها أشرطة سوداء ،
ولآلىء نادرة ، وتدلت من أذنيها ماستان لا حدّ لسناهما . . : انظر الجمال
الظافر الذي ينبغي له جميع السفراء . . . »

وإذا كان لويس الرابع عشر يدرك ما كان عليه ، وما يمثله ، فلم تكن
أتنايس الجميلة تقل عنه إدراكاً لقيمة نفسها ، وثمرتها حسنها . لم تكن
تحتفل بجمالها وحده ، ولم تكن تمجد كافة ما أسبغه الله عليها من آلاء الفكر

النيل ، والروح الجميل ، وتلك الأناقة المطبوعة التي جعلتها تعنى بكافة ما يتعلق بالفنون والآداب . . . ولكنها كانت إلى هذا كله قوية الاعتداد بأصلها . تقول إنها سليلة أقدم الأسر في البلاد : أدواق *ducs d'Aquitaine* ، وعلى ذلك تعد أعرق حساباً ونسباً من البوربون . فهي إذن ملكة فرنسا الحقيقية . . . وليس أحفاد هنري الرابع *Béarnais* إلى جانبها إلا حديثي نعمة ! . . . وقد عرفت كيف تقنع الملك بكل هذه المفاتن ، وتبهره إلى حد اعتقد معه أنه مهما أدى ، فلن يكفي ما يؤديه ليكون جديراً بمثل تلك الحبيبة ! . . .

وعلى ذلك بدأ يتحول . ولا مراء في أن غرائز العظمة ، والإرادة الحازمة ، ورغبة السطوة ، وشهوات المجد : كانت كلها كامنة فيه . بيد أن الرغبة في إدخال ألوان من الدهشة والعجب على نفس أتنائس الجميلة ، ومضاعفة حباها إياه ، ألهبته ، ودفعته إلى إبراز مواهبه الطبيعية ، وميوله ، وجعلت عنده من المطامع الملكية ما لا عهد له به من قبل . إن للحب سلطاناً سيرز من ورائه سلطانه ! . . .

كان الملك ، قبل ذلك الحب ، وقبل تلك الحبيبة ، إذا ما ترك لنفسه وميوله ، يبدو ملكاً مقتصداً ، إن لم يكن بخيلاً . فها هو ذا تحول عن هذه النقيصة ، وتبدل سخياً ، إن لم يكن مبدراً ! . . . أو لم نقل إنه يريد أن يبهز سليلة الأدواق العظام ؟ . . . فلن يزيدها بهراً ، أراد أن يكون سخياً ، يبذل النفس بعد النفيس . . . حقاً ، إنه شجاع ، جسور ، على قوة خلقية تصمد لكل التجارب ، لكن لم تكن له جرأة فرنسوا الأول التي تبلغ الهوس ،

ولا اندفاع هنرى الرابع فى الحرب بجذل .. و لكنّه - وقد صار عاشقاً -
سيصبح مقداماً ، مقحّاماً ، مخاطراً ، معرضاً نفسه ، ولو بلا جدوى ،
للقنابل خلال الحصار ، نازلاً إلى الخنادق ، متهوراً أمام النار فى العراء ...
إنه دقيق الحساب ، عميق التفكير ، شديد الهدوء ، كثير الرويّة ،
متناهى الخذر ، بطيء التصرف ، لا يدع شيئاً للصدف .. وها هو ذا ، رغم
احتفاظه بهذه الفضائل النافعة ، اتخذ مسلك الحماسة ، وسرعة القرار ،
وقوة الاندفاع .. وجمع جنباً إلى جنب : سلطانه ، وغناه ، وبأسه ، وقوة
جيشه .. يريد أن يحدث أثراً لا سبيل لأحد إلى الشك فيه ، أو مقاومته .
وأفرغ جهده فى أن ينبه فى نفوس معاصريه ، وفى نفس خليلته أيضاً ،
فكرة أنه « ملك عظيم » ، بل « بطل عظيم » . ولم يخف أنه يريد أن يبدو ،
على رؤوس الأشهاد ، هكذا فى عيني أتنائس الجميلة ، وأن يتجلى هكذا
فى فؤادها ...

لسنا بذلك نريد أن نقول إن مونتسپان هى التى خلقت لويس الرابع
عشر . أو أنها وحدها ملهمته الكبرى .. لقد رأينا من قبل يتفانى فى
الظهور ، ويبدع فى السمو على ذات نفسه ، من أجل لا قالير ومارى مانشيني .
ومن أجلهما أراد أن يكون جذاباً ، خلافاً ، كبطل من أبطال القصص ،
فاتخذ مظاهر الفروسية ، ووضع قباء الغزاة .. كما حاولت مارى مانشيني
أن تقوم إلى جانبه بدور الملهمة .. و لكننا نريد أن نقول إن هذا
التحول ، أو بالأحرى هذا التثبيت الجلى القوى الصادق لأخلاق الملك ، قد
اتفق وعهد المركةزة دى مونتسپان ، وتصادف ودولتها على صاحب الدولة ،

وامتلاكها ملك البلاد والعباد! .. من ذلك العهد ، على أى حال ، بدأت الحروب العظمى والنفقات الباهظة ، وسياسة الفخامة . . . ونبذت تقاليد التقدير الفرنسية ، وحلت محلها تقاليد من البذخ والسرف ، لا عهد بها من قبل لفرنسا والفرنسيين . . .

يقيناً أن قصور فرساي كانت ستبنى وتشاد ، ربيعة العماد ، ولو لم تكن هناك مونتسپان . . . لكن لعلها ما كانت لولاها لتكون مسرحاً لكل تلك الأفراح والأعياد . ولعلها ما كانت لتتسع وتجمل وترتفع ، لولا رغبة أتنائيس الجميلة .

ولعل قصر سان جرمان العتيق ما كان ليتجدد لولا حرص الملك على أن يرضى صاحبه ، ويدهشها . فأنشأ لها ، أمام نوافذ مخدعها ، حدائق معلقة بين الأرض والسماء! .. ولا ينسى الملك ، بين جيوشه وحروبه عام ١٦٧٣ ، والنار تتلظى بينه وبين أعدائه ، أن يعتب على وزيره كولبير ، ويوصيه : « إنك لم تبين لى ، فى جميع رسائلك التى كتبتهإلى ، ما تم من الأعمال فى قصر سان جرمان . خاصاً بشرفات مدام دى مونتسپان . فلا بد من إتمام ما بدأ منها ، وتزيينها بأقفاص الطير ، لتوضع بها العصافير . . . ولهذا ليس عليكم إلا طلاء القبة والجوانب ، وتركيب سلك ذى حلقات صغيرة ، يقفل من ناحية الحوش ، مع حوض واطىء ، يكون عين ماء تشرب منها العصافير . . . أما الجانب الآخر فعليكم طلاؤه ، والاكتفاء فيه بفسقية ، لأن مدام دى مونتسپان ستأخذ منه حديقة صغيرة . . . »

أرأيت ملكاً عظيماً ، فى وسط حرب وكره ، يفكر فى أدق

التفاصيل ، ويدكر سلكاً له حلقات ، وأقفاص عصفير ، وينابيع ماء ،
وحدات غناء؟! ..

أليس هو الحب ، في أشد سعيره ، يستأثر بقلب الملك ، ويجعله لا يكاد
يرى أو يذكر إلا عيني الحبيبة . يقضى على وزيره بأن يترك مهام الملك ليغنى
بمحيط المحظية السعيدة؟! .. ويحول قصرأ عتيقاً مهجوراً إلى جنة فيحاء؟! ..
فترى في كل مكان : الزهور ، والياسمين ، والأبصال المنوعة الألوان ،
وشجيرات البرتقال في أصصها ، والعصفير في أقفاصها ، وأحواض الماء
تنثر ماءها تحت نوافذ الغانية ، التي زخرت مخادعها ، وجددت حجراتها ،
وتلألأت ثرياتها الثمينة ، وشمعداناتها ذات الشعب ، كأنها الأفاعى النورانية .
وبين هذا كله تصدح الكمان بأنغامها الشجية ، كل مساء . . .

وفي فرساي : بني التريانون ، وقصر كلاني ، من أجلها .. وأنشئت
البساتين الخاصة بها ، كأن عصا سحرية قد مست الأرض فأنبثتها نباتاً حسناً .
لكيما يتضوع حولها شذى أزهار البرتقال والقرنفل والياسمين . . وكان
ذلك كله بدعاً « طريفاً » على باريس! ..

أليس الحب خالقاً مبدعاً؟! .. فكيف به إذا كان حب ملك؟! ..
لم يدخر الملك جنوناً ، ليجعل المركيزة تعيش في قصر من قصور
ألف ليلة ، ثم ليجعلها تظهر كمعبودة ، ثم ليجعلها تشبع كل نزواتها
وبدواتها في اللعب وفي الترف . لم يكتف بإحضار أندر العطور ، بل أندر
الجواهر . حملها الماس بالملايين ، لتدوس كل سيدات البلاط بمظاهر
الغنى الفاحش من الحللى والحلل . وكانت في تذوقها لزيتها لا تُبارى .

تبدو في سهرات القصر كأن جنيات البر حكن ثيابها .. وكأن جنيات
البحر نضدن لآلئها! .. لم يكن ذوقها ليضارع أو يجارى . لم يكن من هذا
العالم .. كان ذوقاً علوياً ، عجيباً ، مترفاً ، مسرفاً ، لا تكاد أموال ملوك
الأرض جميعاً لتقضى من العزة حاجته ، ولا من الوجاهة لباتته! ..

وكان لويس لا يدخر في إرضائها جهداً ، ولا مالا .. كتب ، وهو في
معمعان الحرب ، إلى وزيره كولبير : « إن مدام دي مونتسپان لا تريد مطلقاً
أن أعطيها حجارة كريمة . لكنني أخشى أن تعوزها ، فأرغب صنع صندوق
صغير أنيق ، ليوضع فيه ما سأبينه لك بعد ، لكي أجد فيه ما أقدمه لها عند
رغبتها . قد يبدو هذا شيئاً غير عادي ، ولكنها لا تريد سماع شيء عن
الهدايا .. هذا الصندوق ينبغي أن يحتوي على قلادة من اللؤلؤ ، أريدها
جميلة .. وزوجين من الأقراط ، أحدهما من الماس ، أريده نقياً . والآخر
من كل الأحجار . ثم علبة صغيرة ، ومشابك ماسية .. وعلبة صغيرة
أخرى ، ومشابك من كل الأحجار .. ولا بد من حجارة من كل الألوان ،
ليمكن التبديل والتغيير .. وقرط للأذنين ، من اللؤلؤ اليتيم .. وثمانية
وأربعين زراً ، يمكن تغيير الحجارة التي في وسطها .. أقول لك ذلك
مبادراً ، لتعمل على إعدادها في فسحة من الوقت ، وليكون كل ما فيها جميلاً ،
نظيفاً في نوعه وفي صنعه .. ويكون هذا الصندوق معداً دائماً لما يعن لي ،
وإذا جاء كما أشتهى ، كانت لي فيه مآرب أخرى .. »

هذه الرسالة السرية تلتقي ضوءاً ساطعاً على بعض ما أوتق هذا الملك
من ذوق ومزاج . إذن ، ها هو ذا رئيس الجيش الأعلى ، وزعيم الدولة ،

يجد فراغاً يتحمس فيه ، بقدر تحمس صاحبه ، ليصف عقداً من اللؤلؤ ،
أو قرطاً من الماس ! .. ويتشدد في : أن يكون ذلك كله مجيهاً ! .. وأن
يكون نظيفاً ! ..

هذا ذوق هاوٍ من هواة الفنون ، مفطور ، منذ مولده ، على محبة الأشياء
الجميلة .. ومع ذلك ما من شك في أن هذه الغرائز المتناهية في الرقة ، المتناهية
في الخيلاء ، إنما أثارها فيه عاطفة الحب ، والرغبة في إرضاء امرأة ظامئة
إلى الغنى واللذة والسيادة . فهي لم تكن ، كما ذكر الملك لوزيره بسداجة ،
زاهدة في الانتفاع ، صادقة عن الهدايا .. لم يكن ذلك منها إلا تظاهراً
ومداراة .. فقد كان مذهبها ، كما أفلت منها البوح به يوماً : « في البهوت :
ينبغي الأضغداً .. » .. كانت على ثقة من أن ذلك العهد عهداً ، ولا
يلبث أن يحيى عهد سواها : « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » .

ولم تكن المحظية لتتردد في استغلال مكائدها . فصاربت بنفوذها ،
وتاجرت بسلطانها ، تأخذ العزب والأطيان ، لتفرج عن مغضوب عليه
من الملك ، أو تعفو عن واقع في محذور ، أو لم تنزل لها الوارثة العظيمة
« لاجراندمدمازيل » عن أعظم قسط في ثروتها ، التي تعد من أكبر
الثروات في المملكة ، لتحصل ، تلك العانس ، على العفو عن عزيزها
« لوزون » السجين ؟ ..

ذلك أن مونتسپان كانت هالوك مال ، تلتهم الذهب التهاماً . وكانت
في حاجة مستمرة ، لا لتقوم بنفقات بيتها ، وتكاليف حاشيتها ، فحسب ،
بل ومقامرتها أيضاً . فهي تابع كالمسعورة ، أو على حد تعبيرهم يومئذ :

« لعب جهنم » .. امرأة مقامرة إلى حد الرذيلة ، أو قل إلى حد الجريمة ، خسرت مرة مليوناً في ليلة واحدة (نحو ٤٠٠٠٠ ج !) .. وكان الملك مضطراً إلى سداد ديونها ، وأحياناً يفعل ذلك ساخطاً متبرماً . فقد كانت مونتسپان تكلفه ثمناً باهظاً إلى حد مروع . كانت كل زينة من زيناتها تعدل ثروة طائلة . ولقد اشتهر وصف المركيزة دى سقينيه لثوب من أثوابها التي ترتديها في البلاط : « ثوب من ذهب ، على ذهب ، مطرز بالذهب .. تثنت من فوقه أسلاك من ذهب باهت ، معقودة بأسيخ من ذهب بندقى حر ، مما جعل الثوب كأنه هبة إلهية ، لا تحفة بشرية .. أجل إنه كان فوق ما تتصوره مخيلة البشر .. إنهن أجمل عرائس الجن ، اللواتي نسجن في السر هذه الحلة ، لتلبسها أجمل عرائس الإنس ! »

أما في هذه المرة ، فإن المركيز دى لانجليه هو الذى فاجأ الجميلة أتنايس بتقديم هذا الثوب « الإلهى » .. ولكن الملك ، عادة ، هو الذى يسوى الحساب . وهكذا ساقطت هذه المحظية ذلك الملك ، الذى كان بمبدأه ضنيناً ، وكان بدوقه يميل إلى « الفخفخة » ! ..

تليذ مازاران البخيل هذا ، قد انقلب ، على يديها ، أميراً سمحاً مبذراً . وكذلك أصابه تحول آخر بسبب الحب : هذا الخجول الذى كان دائماً يخشى الفضيحة ، انتهى ، إن لم يكن بتحدى الرأى العام ، فعلى الأقل بأن يعرض زناه بجرأة على مرأى ومسمع من البلاط كله ، منتهكاً بذلك كل حرمة ، إذ جعل لهذا الوزر صفة الشيء المقبول المباح .

لقد كانت المركيزة دى مونتسپان هي الملائكة الحقيقية ، وكان الجميع ، حتى

أطفالها أنفسهم ، يدعونها السيدة الجميلة « *La Belle Madame* » . وكأنها خلقت لهذا الدور منذ مولدها .

ويؤكد لنا « سان سيمون » في مذكراته : « ... إنها لم تستطع التخلص قط من « مظهر » الملكة هذا ، وإنها اغتصبت له لنفسها ، حتى لقد تبعها هذا المظهر بعد اعتزالها حياة القصر واعتكافها . وألف الناس ذلك منها ، وانصاعوا له . ولانت تجلس في مخدعها على عرسه ملتصقة بمائة سميرها ، وليس في الغرفة مقعد سواه .. حتى ولا لأولادها من الملك .. حتى ولا للدوقة دورليان نفسها .. ومن هذا يمكننا الحكم على طريقة استقبالها الناس جميعاً . وكانت فرنسا كلها تقصدها ... ولست أدري بأية بدعة تحول ذلك ، مع الزمن ، إلى واجب ... وكانت تخاطب كل زائر كما لو كانت ملكة متوجة ، مستوية على عرشها ، تشرّف رعاياها بتوجيه الخطاب إليهم .. كل من يدخل عندها يحس التيب والخشوع للشول بين يديها .. أما أن تقوم هي بزيارة أحد ، فأمر لم تفعله قط لكائن من كان ، حتى ولا لشقيق الملك ، ولا لعقيلته ، ولا للجراند مدموازيل ، ولا لقصر كونديه ... »

فإذا كان ذلك حال المريكزة دي مونتسپان ، وقد شاخت ، وهجرها عشيقها ، فما بالك بها حينما كانت في أوج مجدها ، مستوية على قلب ، مستوية على عرسه ؟ ! كانت إذ ذاك تستطيع لنفسها تصرفات لا تروق الملك ، ويشمئز منها الشرفاء من أهل البلاط . فالمحظية لا تقنع بإعلان ثرائها وسلطانها المطلق ، فحسب ، بل تعرض على العيون ، بطرق فاجرة ، لا تعرف حرجاً : عبثها ، ولعبها — كما في الشطرنج — بالشاه الذي « مات » فيها ! ..

وها هي ذى المركيزة دى سقينييه تروى لنا ، فى رسالة إلى كريمتها ،
عودة ظافرة لأتنائيس الجميلة إلى البلاط ، بعد إحدى غضبات الملك منها ،
فتصورها لنا هكذا : « .. كواتتو (رمز مصطلح عليه لمونسيان فى
مراسلاتها) كانت جالسة ذلك اليوم ، على مائدة اللعب ، وقد أسندت
رأسها بلا كفة على كتف صاحبها (الملك) .. وهم يزعمون أن هذه المظاهرة
منها كأنما لتقول : « إننى خير مما كنت أبدأ .. » .. »

بكل يقين كانت هذه الحركات منها ترح الملك ، وهو الحريص طول
حياته على اللياقة والوقار .. لكنه كان يحتملها من خليلته ، لأنه لم يعد
يستطيع الاستغناء عنها .. ولأنها بلغت منه ما تريد ، وتمكنت .. صارت
سيدها ..

كانت هذه المرأة علة الملك ، وكانت تعلقه .. منها الداء ، وفيها الدواء !
ذلك أنه كان متعلقاً بها بروابط شتى ، ربما كان أشدها : حكم العادة .
فمن خصائص هذا الملك كما ذكرنا ، أنه رجل عادات ، حتى فى الحب . فى
رجل شهوانى من مثل طبعه تتفق هذه الغرائز المنظمة تماماً وسهولة
الغراميات العابرة . وكائناً ما كان تعلق الملك بهذه الخلية الشبقة المخصصة ،
فقد كانت بينهما منازعات مستمرة ، كفيلة حتماً ، هذا اليوم أو ذاك ،
بالقطيعة الحادة . فليست الاختلافات الشعرية بينهما قليلة . وكان أدعى
ما يدعو إلى سوء التفاهم والفرقة طبع هذه المرأة ، الذى يؤلب الحدة مع
الاستبداد . وهى كذلك مفطورة على الشجار ، والنزاع ، تتضارب فى
جوانحها الأهواء والنزوات ، لا تفتأ تخاصم الملك ، وتشتجر معه ، بسبب ،

وبلا سبب ، تفعل ذلك من طبقة عالية . فهي تدرك تماماً كيف تعامل خلقه الطاغى ، وقد رتبت سلوكها طبقاً لما يتناسب وذلك الخلق . لا بد إذن لمن لا يريد أن يكون مستعبداً منه : أن يسوده ، وأن يتحرش به ، ولو بضرب الشياطين ، كما لو كان حصاناً جموحاً لا يسلس له ، إلا بالعنف ، قياد . ومن ثم جاءت تلك الغضبات المضرية ، والسخطات المتواصلة ، وتلك المشاهد الفاضحة ، التي تصطنعها « السيدة الجميلة » لعشيقها . فهي ، إذا شئنا أن نقول ، تهدده ، وترعبه ، وترعده . فقد رأت بعينها يوماً « رأس الحمل الطائرة » ، فانقلبت ذئبة . رأت لأقالير قد ضاعت ، وباءت بالخسران والهجران ، بسبب تواضعها وتنعمها وتذلها . فرأت ، لكي تظل السلطنة ، أن تعمل عكسها تماماً ، تحكم بالعنف لا اللطف ، وبالكبرياء لا الرجاء . . . على أنها ما لبثت أن أرهقت الملك بجشعها ، وبطلباتها التي لا تنقطع من وظائف ونقود . حقاً ، إنها لم يكن لها أى ضرب من النفوذ السياسى . فإن لويس الرابع عشر كان قد اصطلح على ألا تخدم خليلاته إلا ملذاته . . . أقسم لنفسه ألا تكون هن عليه أية سلطة تنازع فى الحكم سلطته . ويمكن ، إلى حد بعيد ، القول بأنه استمسك بعهده لنفسه . غير أن هذا لم يحل مطلقاً ، وهو مصدر النعم كلها ، دون أن يجرى على المختارة منه ، الأثرية عنده ، هى وأهلها : أرزاقاً ، ويغدق عليهم من الخيرات إغداقاً . . . انتفعت المركيزة دى مونتسپان ، ونفعت . . . وأسرفت ، كما هى عادة النساء ، فى الامتناع : بالطيبات ، والتوصيات . . . وكانت باردة بذوى قرباها ، فعملت بهمة على أن يبلغ أخوها الأميرال الدوق دى فيثون ذروة المجد ، رغم

ما عرف عنه من سوء السير ، الذي يحول عادة دون التقدم . وحصلت له ،
بعد لآى ، على عصا المارشالية .

فلنستمع إلى الأب دى شوازي يروى بخبث حكاية ذلك الدس الجهيد ،
قال : « كان الملك قد أعد ، مع وزيره لو فوا ، كشافاً بأسماء أولئك الذين سيدشرفهم
بعصا مارشالية فرنسا . ثم قصد عقب ذلك إلى المريكزة دى موتسبان
التي فتشت في ميوب ، وأخرجت الكشف ، فلما لم تجد فيه اسم أخيها ،
تميزت من الغيظ ، وتفجرت منها امرى غضباً المشهورة عنها ، اظليقة بها .
فلم يقدر الملك ، ولم يجرؤ ، على مقاومتها ، أو مواجهتها . . فتمتم قائلاً :
إن المسيو لو فوا إذن قد نسي ، حتماً ، وضع اسم الشقيق العزيز . . فصاحت
به امرأة ناهرة : « إذن فابعث في طلبه حالا ! . . » ، ولامته ماشاءت أن
تفعل ، وكما ينبغي أن يكون الملام . . وبعثوا في طلب الوزير ، وقال له
الملك بكل رقة : إنه ، بلا شك ، قد نسي « فيقون » . . فبدأ الوزير يتلجلج
معتزفاً ، معتذراً عن ذنب لم يرتكبه ! . . ووضع اسم الشقيق الغالى في
رأس القائمة ! . . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، سرى عن صاحبتنا ، واكتفت
بأن عتبت على لو فوا إهماله مسألة تمسها إلى هذا الحد من قريب . . . »
ما أصعب أن يتصور المرء ملكاً عظيماً : يكون إلى هذا الحد ولداً
صغيراً إزاء « أتنايس الجميلة » . . أي مثل هكذا ، تحت سحر العيون ، ملك
عرفه التاريخ : حازماً ، قاسياً ، طاغياً ؟ .. ملك غيور على سيادته ، وعلى كرامة
سلطته ؟ .. أكانت جيوب الملك هكذا مباحة المحظية ، تفتش فيها ، ثم تنفضه
بنظرتها ، وتروجه بغضبها ، فيتمتم أمامها ، كتلميذ مذنب يخشى العقاب !

أما أن تلك الترقية انتزعت من الملك انتزاعاً ، فأمر لا مربية فيه .. وإذا
نظرنا بالحاجب الثاني ، كما يقول العرب ، عرفنا ما هي تكاليف الغرام !
ليت هنداً أنجزتنا ما تعدد وشفقت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد !
وكما تكونون يولى عليكم ! ..

وكان شر ما يلقاه هذا الصب الموله ، على تسامحه مع الغضبي ، وكرمه
مع الشرهة ، وتلييته كل نزواتها ، ونزوله عند كل بدواتها : شعوره بأنها لم
تكن تحبه إطلاقاً ... وملاحظة أنها ، في خلوتها ، تكون منصرفة
الذهن إلى غير ما هما فيه ، تاركة جسدها ، على رغبتها ، في عش الهوى ،
طائرة بروحها ، محلقة بنفسها ، في عوالم أخرى ! ..

إنها كانت في اللعب جالسة إلى المائدة الخضراء ، تقامر ، وتكسب ،
وتخسر ، بلا حساب . . إنها كانت تسير محملة بأجمل الجواهر ، وتتخطر
أمام بلاط هو مجمع الشابات والشبان ، وترقص ، حتى تلهث ، وتشترك
في دوى المحادثات ، ورنين الضحكات ، وشجي النغمات ، وتنسجم في ضوء
الثريا ، ولألاء الماس ، وهي تعرض من نضرة حسنها ، وآية زينتها ، وروعة
ماسها ، ما تتصاغر إزاءه النساء ، وما يتهوّس أمامه الرجال ! ..

أما الملك ، فهو كلما علت به السن ازداد نزوعاً إلى الهدوء ، وميلاً إلى
الخلوة . . فما كان لهذه المظاهر الطائشة إلا أن تفتت في عضده ، وتصطدم
بوقاره وجده . وشعر أن المر كيزة لا تبقى إلى جانبه إلا لقضاء مصلحة لها
أو لبانة . وربما كانت تساوره كذلك الشكوك في وفائها . فلم تعزّ الرسائل

الغُفل التي جعلت تصل إليه، وتقطر هذا السم في فؤاده . . أو لم يجر
الوسواس الخناس بأنها ، قبل علاقتها بالملك ، كانت خلية ذلك « القزم
الوقح » لوزون المشهور ، الذي عرف عنه أنه « ديك » نساء البلاط
جميعاً ؟! وقد ظلت هذه الحكاية سرّاً غامضاً . ويحتمل ، بل أكثر مما
يحتمل ، أن شيئاً ما ، كان بين المركيزة دى مونتسپان ولوزون ، حتى إن
هذا القزم كان يطوح بها على هواه ، ويجعلها تغني على ليلاه ! . .

وكان للملك جواسيسه في كل مكان يحملون إليه يومياً أسرار
المراسلات . . فوقف بالتأكد على كل هذا اللغظ السيء . وما كان ذلك
بالطبع ليحسن في شيء صلاته بخليته الهوجاء . . زد على هذا أن هناك ، في
البلاط نفسه ، جماعة تقيه من الناس ، تعمل ، بلا هوادة ، لوضع حد لهذه
العلاقة المحرمة الفاضحة .

ولقد نفخ في نار هذه الفضيحة جميع أعداء الملك ، سواء في فرنسا أو
خارجها . وساهم ، في هذا ، شيئاً ما ، الزوج الساخط الممرور ، المركيز
دى مونتسپان نفسه ، بما أثاره من ضجة حول حياته الزوجية التعسة . .
والظاهر أن هذا السيد كان يرضى عن طيبة خاطر أن يقوم بدور الزوج
المساير ، لو أنهم عرفوا في الوقت المناسب دفع ثمن مسيرته . . أما وقد
خاب منه الأمل ، فقد راح يرفع عقيرته بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ،
لينتقم من قلة كرم الملك .

وكان أهل الوقار والمتزمتون لا ينفكون عن التنديد بما في هذه الواقعة

من « زنا مزدوج » ، ووزر ثقيل . وأجمع الهجنوت والپجانسيون وجميع
أحزاب المعارضة على ملامة الملك على مسلكه وسوء سيرته . ولم يعد الكشالكة
بقادرين بعد على التسامح في هذا الإثم الكبير ، الذي يلقي عندهم ظله
الأسود على الدين كله . . . وتألقت عصبة تقية لتحمل الملك على القطيعة ،
عصبة انضم إليها « الأب لاشيز » الذي يتلقى اعترافات الملك ، و« بوسويه »
الخطيب المؤثر ، ومدام دي مانتنون ، والمارشال دي بلقون ، وغيرهم
وغيرهم . . .

ولم يكن الأب بوردالو ، واعظ البلاط الديني ، بالذي تنقصه
الشجاعة ، فلم يدار الملك ، بل وجه إليه الإنذارات القاسية . ولا مشاحة
في أن ثلاثاً من عظاته ، خاصة ، عن الدنس ، وعن عدم التوبة ، وعن
عذاب السعير ، قد تركت في الملك أثراً عميقاً . . .

وفي تلك الأثناء كانت مدام دي مانتنون ، التي أخذت على عاتقها
مهمة هداية الملك ، وردده إلى الصراط المستقيم ، قد بدأت عملها الورع ،
في أناة وحذر .

ولعل ضمير الملك ، في هذه الآونة ، طفق يتحرك ويضطرب : « فقد
كان دائماً أميراً ورعاً ، يخاف عذاب يوم آخر . وقد حدث - كما روى
المرکيز دي لافار في مذكراته - أن رأى أحد ضباطه يُحتَضَر في فرساي ،
ويتناول سر القربان المقدس ، فأثر فيه هذا المشهد ، إلى حد أنه أدلى به عند
عودته إلى خليلته . . . بحيث إنها هي أيضاً تحركت هو اجسها من تأنيب
الضمير . . . وقالت باستعدادها للتوبة والإنابة ، واعتزما الاقتراق . . . »

أتكون هذه نقطة التحول في قلب هذا الملك ، الذى كان يخاف الله ؟
على أن الأمور لم تجر على نحو من السهولة والبساطة إلى الحد الذى يصوره
لنا ذلك المريكز . والحقيقة أن بوسويه - ومن ورائه صحبه - كان قد وضع
خطة واسعة لينزع من الملك عهداً بالألا يعود إلى لقاء « السيدة الجميلة » ..
وكتب إليه فى هذا الصدد رسائل مؤثرة بليغة . وأخيراً حال قسيس
فرساي بين الملك الزانى وبين تناول القربان ... وانتهى الملك إلى الخضوع ،
بعد ما غص قلبه بالحسرة والندامة ... وفى ١٣ أبريل ١٦٧٥ ، أدى صلاة
الفصح فى كنيسة فرساي . وانتصر بوسويه ! . فاز بدخول لاقالير إلى دير
الكرملين ، وبطرد المريكزة دى مونتسپان من القصر .

إذن آن أن تختفى معالم الحنا ، وتنمحي آثار رجس الملك ..
فوز كان قصير الأمد . فبعد ما قضى جلالته بضعة أشهر فى الجيش ،
عاد إلى عادته القديمة .. بل إنه قبلما يدخل قصر فرساي ، كانت أتنائيس
الجميلة سبقته إليه ! .. فأهرع بوسويه إليه يبذل محاولة جديدة . لكن كان
قد سبق السيف العذل . هزمت عاطفة الغرام الجاحمة ما فى فؤاد الملك من
تورع وتقوى وإيمان . فلم يكذب ينطق بوسويه أمامه بكلمة ، حتى انتهره
صائحاً فيه :

— « لا تقل لى شيئاً يا سيدى ! .. لا تقل لى شيئاً ! .. فقد أصدرت
أوامرى ، وأوامرى واجبة التنفيذ ! .. »

من المحتمل كثيراً أن حكم « السيدة الجميلة » كان يمتد ويطول ما طاب لها ، لولا « مأساة السموم » ، التي كانت لها يد فيها ، والتي لطخت بالعار بلاط فرنسا ، وملأت أوروبا كلها بالسخرية والاستنكار ، حتى إيطاليا ، المشهورة بتفننها في السموم ، غيرت فرنسا بمأساتها ، وعدت نفسها إلى جانب تلك الجرائم ساذجة بريئة ! ..
فما هي هذه القضية ؟ ..

لنرجع إذن القهقري بضع سنوات ، لنرى فضيحة يدلم لها قصر عاهل فرنسا ، وتسود منها صفحات التاريخ .. فضيحة لم يسلم منها رجل من علية القوم ، أو سيدة من الشريفات والنبيلات والأرستقراطيات ، اللواتي يفخرن بأنهن « الطبقة الراقية » ، ويصعرون خدودهن للناس ... فضيحة دلت على أن المرأة التي كانت خليعة الملك لاثني عشر عاماً ، وولدت له لا أقل من سبعة أطفال ، إنما هي قاتلة ، ملوثة اليدين بدماء ضحاياها ، وثيقة الحلف مع الشيطان نفسه ..

حدث حوالي عام ١٦٧٣ أن قسس نوتردام ، الذين يتلقون اعتراف النادمين ، أبلغوا بوليس باريس بوفرة عدد النساء اللواتي يعترفن بأنهن دسسن السم لبعض الناس .. فلم تعر الشرطة ذلك اهتماماً ، لكثرة ما يقال

ويروى في مثل هذه الشؤون ، بعد قضية المركيزة دى برنقلييه ، التي اشتهرت بأنها « ملكة السموم » ، مما يجيء غالباً بقصد التظاهر والمحاكاة ، ولا أساس له . . ولكن ، بعد أربع سنوات ، في سبتمبر ١٦٧٧ ، بعد أربعة عشر شهراً من إعدام المركيزة دى برنقلييه ، وجدت مذكرة في معترف إحدى الكنائس بشارع سانت أنطوان ، تدل على مؤامرة لتسميم الملك وولى العهد . ثم ظهر أنه إنذار لا محل له ، فلم يسمع به بعد ، لولا أن تحرك البوليس آخر الأمر .

فقد كان في شرطة ذلك الزمان ملازم يدعى « جبرائيل دى لارايني » ، موفور الحظ من المقدرة والفتنة ، ظل يتتبع الحياة الباريسية ، ليكشف عما إذا كان ثمة أساس من الصحة للإشاعات الكثيرة . وأدت مباحثه في نوفمبر إلى القبض على من يدعى « لويس دى فانانس » ، وهو رجل له معاملات مع الأكثرية البارزة من أهل البلاط ، ومنهم المركيزة دى مونتسبان . وكذلك وجدت أوراق معه ومع خليلته « فينيت » ، أُلقت ضياء على عصبة كاملة من الكيمايين ، والسحرة ، وطهاة السموم .

وفي نهاية العام التالي ، ظهرت قرائن جديدة ، إلى جانب الوقائع التي طفق لارايني يميظ عنها اللثام شيئاً فشيئاً . فقد جاء محام صغير إلى البوليس بحكاية شنيعة . قال إنه كان في حفلة عند امرأة تدعى مدام فيجورو ، وقد لعبت الخمر بالرؤوس . وفي آخر السهرة فاهت إحدى المدعوات ، وهي منجّمة معروفة باسم « ماري بوس » ، بهذه العبارة : « تكفيني ثلاث عمليات تسميم أخرى ، وأستغني » . . فأسرعت مدام فيجورو فهزت

صديقتها السكرى ، تذهبها إلى طيشها ، لكن بعد أن فات الأوان .. وأراد
البوليس أن يثبت من صحة رواية المحامى ، فأرسل امرأة إلى مارى بوس
ترجو بعض السم « لزوج لم تعد تطيق البقاء معه » .. ف وقعت مارى فى الفخ
المنصوب لها ، وربما كان ذلك بسبب رغبتها الملحة فى الاعتزال السريع ،
وباعت للزبونة سائلا ، قالت لها عنه إنه « يؤدى الواجب لساعته » ..
فسلمت الزجاجة للبوليس ، فوجدها تحوى سما زعافاً .

وعندئذ قبض فى الحال على مارى بوس ومدام فيجورو .. وبدأ سيل
من الاعترافات ، أدى إلى الرأس المحرك لهذه العصابة ، وهى « كاترين
مونقوازان » : امرأة ساحرة ، غريبة ، شنيعة ، دميمة ، ذات قوة خارقة
للعادة فى الشؤون الروحية والتنبؤ بالمستقبل ، وإحاطة بعلم النفس ، مكنتها
من الاتصال بأرقى الطبقات ، تعد لهم : التعاويذ ، والسم ، والتزييق ،
و« تشبشب » ، وترد الشباب إلى من فقدت نضارته .. وكانت تجارته بادئاً
بريئة ، جمعت ضرباً من معاهد التجميل والصبأ .. ثم تدرجت طمعاً فى المال ،
إذ وجدت أغلب زبائنها يرغبون فى الخلاص من بعض الناس .. ولما كانت
على معرفة غير قليلة بالطب والكيمياء ، فقد راحت تتركب السموم .. ثم
انقطعت لهذه الصناعة ، يحميا عدم تقدم الطب الباطنى إلى حد تكشف معه
آثار السموم فى الأبدان .. وتضخم غناها ، واشتهر اسمها فى كافة الأرجاء .
وبرغم دمامة شكلها ، وشناعة تجارتها ، فقد كان لها عشاق كثيرون ،
أحدهم يدعى « لساج » ، صار ساعدها اليمنى . وآخر هو الشرير « الأب
جيبور » ساعد على انتشار آثارها ، تحت ستار من مسوحة الدينية ،

إذ لا يشك فيه أحد. وكذلك كان من بين عشاقها الكونت دي كوسرانس،
والكونت دي لاباتى، والمهندس فيشيه، وأندريه جيوم الذى كان يتولى
إعدام المجرمين ! ..

ولما قبض على هذه المرأة، وذاعت الفضايح المنكرة حولها، أمر الملك
بتأليف لجنة خاصة للتحقيق، من أعضائها ذلك الملازم اليقظ « لاراينى ». .
وعرفت هذه المحكمة باسم « الفرقة الطامية » أى « المحكمة المستعجلة »، لأن
القضايا فى الزمن الغابر كانت تنظر فى غرفة رهيبة، مجللة الجدران كلها
بالسواد، وتضاء بالشعل والشموع .. وبلغ عدد المتهمين ٤٤٢ شخصاً،
تعلق مصيرهم بخيط من العنكبوت .. لكن شهوات الرجال تغير مجرى
التاريخ. إن ضعف الرجال للنساء هو علة العلل : علة تقضى على مستقبلهم
السياسى أحياناً، وتقضى على مصالح وطنهم أحياناً، وتدنس كرامة الرجولة،
وتزعزع إيمان الشباب بالمثل العليا للرجال العظام.

ظهر للملازم لاراينى ما مزق قلبه، رأى أن أغلب أعضاء لجنة التحقيق
فى « الفرقة الطامية » طفقوا يتعشون، ويرقصون، ويغازلون السيدات
الواقفات أمامهم موقف الاتهام، المسئولات عن جرائم قتل أو شروع
فى قتل. وانقلب هؤلاء القضاة رعاة : يبسطون أجنحة الحماية والرحمة على
هؤلاء الفاتنات، اللواتى ينظرن إليهم بنعومة ودلال، نظرات مكحولة
بالإغراء والاشتهاء، فلم يستطيعوا رد نداءهن الصامت الصارخ .. ولم تعد
تحدهم رغبة فى إرسالهن إلى السجن، أو إلى المنفى، أو إلى الإعدام ! ..
وكانت مطارحات الهوى، وجولات الجوى، سبباً فى ظفر الجمال بالحق،

فبدلوا أحكام الإعدام بالإبعاد المؤقت عن باريس ! ..
أما الرجال أو النساء الدميات ، فقد أمضوا فيهم قتلا وتشريداً ، أعدموا
سته وثلاثين ، ونفوا ثلاثة وعشرين ، وألقوا في غياهب السجن بالباقيين !
فالمحاربة ، والاستثناء ، قد سادا « الفرقة الخامسة » ، منذ مئتين وستين
عاماً ! ... فتأمل ! ..

وقد خف الملك نفسه ، لإنقاذ بعض اللواتي يتصلن به ، من قريب
أو من بعيد ، ومنهن أوليمپ (الكونتس دى سواسون) وشقيقتها ،
والدوقة دى بويون ، والبرنسس دى تينى إحدى وصيفات الملكة ، ومارشال
لكسمبورج ، والمركيزة دلوى ، والكونتس دى رور ، والكونتس
دى پولينياك . . وقد هز الملك رأسه أسفاً على ما كان من هذه النخبة
الأرستقراطية البارزة ، المحيطة بالقصر . . وانتظر تفاصيل التحقيق ،
ولكنه بادر إلى حماية أوليمپ دى سواسون ، التي كانت له بها علاقة فيما
مضى من السنين ، ثم هي المشرفة على جناح الملكة وخزاناتها فى البلاط . .
وخيرها بين المنفى وسجن الباستيل ، فاخترت الرحيل .

ولما عمّت الفضاخ ، وزادت الإشاعات ، وأصبح بلاط فرنسا ، بنسائه
ورجاله ، أحدوثة قصور أوربا ومضغة الأفواه ، أصدر الملك ، فى أول
أكتوبر ١٦٨٠ ، أمراً ملكياً بوقف جلسات « الفرقة الخامسة » !

وكانت فى مقدمة السيدات الآثامات ، تلك التي عاجلت أشنع الخطط ،
وبيتت أبشع الجرائم : امرأة ولاكل النساء : لأنها أقربهن إلى قلبه ، محظيته
الرسمية ، وأم أولاده الرسميين : أتنايس الجميلة : المركيزة دى مونتسپان !

ونحن ، وإن لم تكن لدينا الملفات الخاصة بهذه القضية السوداء الشنيعة ،
إذ أن الملك أحرق منها بنفسه ما أراد ، يكفينا ما بقي من الوثائق لإثبات
اشتراك المحظية العزيزة في استخدام السموم ، للخلاص من لا يروق لها .
وما من شك في أن الملك ، رغم سورة غضبه الأولى ، وشناعة التهمة
اللاصقة بها ، تمالك ، واصطنع الصبر ، بدلا من طردها من البلاط لكيلا
يرأها مرة أخرى .

إن اسمها كان قد تردد كثيراً خلال التحقيق ، ومنذ بدأت قضية
السموم الكبرى ، كانت أفضع الشكوك تساوره منها . وقامت بينهما
منازعات غاية في الحدة والعنف . والآن ، إذ ثبت قطعاً انغماسها في هذه
الحماة حتى أذنيها ، فقد طفح السكيل . لكن الملك كان رجلاً شديد الحصافة
والحذر ، أفطن من أن يقوم بحركة يكون لها دويها ، يفرض بها عقاباً
يكون أشد من الضرر المستفحل نفسه ، وينفخ بها في نيران فضيحة تمس
كل نبلاء فرنسا العظام ، وتمس جوانب العرش ذاته . . . فأمر بإغلاق
« الفرزة الطامية » ، ولم يكتف بأن تقال من العقاب خليلته الآثمة ، وأم
أولاده ، بل قرر أن تترك وشأنها ، لتقيم في البلاط أيضاً . فمن كرامة
الملك ألا تظهر صاحبة الملك مجرمة آثمة . . وكل ما عليها هو أن تعتزل
جناحها الخاص ، لتكون بمنأى عنه ، فلا يريد بعد جوار امرأة سمّامة ! . .
بقيت إذن المر كيزة دى مونتسپان في البلاط ، وقضت عمراً طويلاً
آخر ، يبلغ عشر سنوات على الأقل ! . . كما بقيت لا فالير من قبل ! . .
بيد أن الضربة التي أصابتها لم تصلح من شأنها كثيراً ولا قليلاً . فقد ظلت ،

كما كانت دائماً ، في تعطشها للسذات ، ونهمها للمال والرتب ، سواء لها أو لأهلها ، تداعب على الدوام ، في صميمها ، الأمل العنيد بغزو الملك من جديد ، وتتعلم بأنه لا يلبث اليوم أو غداً أن يتهافت عليها ، كعادته السابقة ، بالروح والبدن جميعاً ..

وطال بها المطال ، وضاق المقام .. ورأت آخر الأمر أن عشيقها القديم اجتواها ، بل - كما قالوا - « احتقرها » ، واضطرها إلى مغادرة البلاط نهائياً .. اقتنعت بأنه ما باليد حيلة ، وأن لا أمل لها في استرداد مكائنها السابقة .. فتأبت وأنابت .. وهي توبة جاءت متأخرة ، ولكنها توبة صادقة على أى حال .

وقد صعب توبتها ما روع أصحابها مما تلاقيه من عذاب نفساني ، وعقاب روحي .. أية جرائم إذن يمكن أن تكون ارتكبتها هذه المرأة ، حتى لا تجد توبة من الحشونة بحيث تمحو أوضاع حياتها الماضية ، فتلبس مسوحاً من الشعر يلي بدنها ، تحت ثيابها ، وتعذب لحمها بكى النار ، وتخاف مع هذه الكفارة كلها الظلمات ، فتجعلهم يشعلون الشموع طوال الليل في غرفة نومها ؟ !

أما الملك فقد ردت هذه الصدمة الغنيفة على الفور ، غداة مأساة السموم ، إلى حظيرة التوبة .

يؤكد لنا سان سيمون ، وغيره من المؤرخين ، أن مخافة الله جعلت لويس ينتزع نفسه من شيطان أتنائس الجميلة ، ويتورع .. وهذا حق .. فإن

بشاعات خليلته وسوءاتها كشفت له فجأة عن كل ما يمكن أن تقع عليه العين من الشر والقذى .

فترجع القهقري رعباً واشمئزأاً... وربما ظل يتذكر ذلك اللقاء العارض في دهايز فرساي ، عندما كانوا يحملون القربان إلى أحد ضباطه المرضى في النزع الأخير... أجل ! لقد تداركته رحمة ربه ، فردته على أعقابها ، لكيلا يكون من القوم الخاسرين !..

وانتهز البعض نقطة التحول هذه في ضميره ، وكان يتربص بها ، من وقت طويل .. ولم يكن هذا البعض إلا مربية أطفاله — أولاد الزنا من المركيزة مونتسپان — وهي التي رفع الملك درجتها اعترافاً بجميلها ، فأصبحت : المركيزة دي مانتنون... وكانت تدفعها وتوجهها عصبة من التقاة ورجال الكنيسة ، حتى اقتنعت بأنها مسخرة من عند الله لتؤدي إلى الملك رسالة : أن تساعد على سلام روحه ، وتنقذه من فاحشة الزنا التي ساءت سيلاً .. أو على حد تعبيرهم في ذلك الزمان . « من تجارة النساء » ! وكان الملك في الثانية والأربعين ، في ذروة قوته وحيويته ، يُخشى عليه ، في كل لحظة ، أن يرتد ويعود إلى عاداته القديمة من التهلك والاستهتار . على أنه بذل مجهوداً كبيراً ليكبح أهواءه ، ويكبت شهواته . ورفع من كرامة عيشه . ولم يشاهد قط ، مثلما شوهد في تلك الأيام ، رب أسرة ، شديد التعلق بالملكة . أما الملكة فقد دهشت ، وفتنت ، بما أصاب قرينها من تغيير ، وعزت الفضل فيه إلى تلك التقية الورعة الحاذقة « مانتنون » . فشكرتها ، لأنها ردت إليها قلب الملك ...

ثم حدث ، بعد عام أو عامين ، أن ماتت الملكة . فشوهدها لم يخطر
ببال إنسان . . أصبحت المركيزة دى مانتنون — تلك التي كانت أرملة
أديب خامل ، تدعى مدام سكارون — هي الزوجة (غير المتكافئة!) : عقيلة
الرجل الذي كان يومئذ : عاهل فرنسا ، وفيصل أوربا! . . .

هذا الحدث العجيب ، الذي ذهل له العالم ، ربما كان هو أعجب جانب
من حياة الملك العاطفية ، وأمعنه في السر والخفاء ، وأعضاه على الذهن!
فلننظر فيما حاول المؤرخون أن يجدوا له من تفسير وتبرير . . .





الكتاب الثاني

٧

أما حظ المريكزة دي مونتسپان ، فقد سطع سطوعاً مفاجئاً ، باهراً ، لا يقاوم .. وأما حظ مدام دي مانتنون ، فقد جاء بطيئاً ، متمهلاً ، متاقلاً ، مضيقاً عليه في الرزق ، مشدداً عليه في الخناق ، متقطعاً بالعقبات الكئود .. لذلك نرى هذه المرأة ، التي نشأت في لفائف البؤس وطيات الخمول ، وعاشت في غمرات العيش .. نراها ، إذ وصلت إلى ذروة العظمة والسؤدد ، حريصة على أن تتدثر بالحجب ، وتنطوي على نفسها في الظلال ، وتقمع ، ولو في الظاهر ، في عقر التواضع والظلام ...

ومن العبارات المشهورة عنها ، التي تذكر للدلالة على نفسييتها ، ما كتبه لصديقتها مدام دي فيلارسو ، في شهر أغسطس ١٦٦٠ ، عند عودة الملك الظافرة إلى باريس ، هو وزوجته الشابة ماري تيريز : « لا أظن في الإمكان أجمل مما كان .. ولا شك في أن الملكة تأمت ، مساء أمس ،

سعيدة بالزوج الذي اختارته . أرادوا أن يقرأوا بين سطور هذه الرسالة
لونا من البوح بالحب للملك ، من جانب مدام دي مانتنون ، قبل بنائها به
بخمسة وعشرين عاماً ، وضرباً من الإشارة إلى قدرِ كان يعد لها ، والرجم
بغيب مصيرها .

فمنذ تلك الأيام البعيدة ، وصاحبتنا فرانسواز هذه ، أرملة الكاتب
سكارون دي مانتنون ، تحلم بامتلاك فؤاد الملك . . جعلت هذا الغزو نصب
عينها ، ومضت في سبيله قدماً ، بخطى ثابتة . والحق أنه يتعذر إدراك بداية
هذا الطموح العجيب منها ، الذي هو أقرب إلى الخرافة ، أو على حد تعبير
المركية دي سفينيه : « لاشيء أشد غموضاً وخفاء من الجزء الأول من حياة
هذه المرأة » . . وفي هذا قالت مانتنون ، وقد أصبحت ملكة فرنسا ، إنها
تريد أن تبقى : « لغزاً للذريات القادمة » !.. والواقع أنها ، في هذه الزيجة ،
لغز معمي ، هي والملك سواء : هذه المرأة الحليفة الحذرة ، التي تهرب من
الضوء ، وتتجنب الظهور ، وتتملص من أن تكون قبلة الأنظار : أتراها
كانت ترى جلياً ما يدور في ذات خلدتها وصميم نفسها ؟ . . وإلى أي حد
اصطنعت هي مصيرها ، ورسمت قدرها ؟ . .

إنها بنت رجل « جعيدي » وامرأة وضيعة ، تتيتم منذ الصبا ،
فعاشرت أقرب ما يكون عيشها على الصدقة والإحسان العام . . آواها بادناً
أقارب بعيدو القرابة ، منهم مدام دي قيليت . . ثم مدام دي نيان ، التي
يمثلها لنا سان سيمون في مذكراته : مخلوقة شجيحة ، تقبض بنواجذها

على مفاتيح أهرائها ، و « تكيل بنفسها الشعير لخيولها في الإسطبل » ..
لم تكن الصبية فرنسواز عند قريبتها الذميمة هذه إلا خادمة بمعنى
الكلمة . بل إن أعداءها كانوا ، فيما بعد ، يرددون أنها كانت « جلفة » ،
تستخدم لتش على ديكة القرية في الحقول ! .. وكان سان سيمون ، أشنع
المشنعين عليها ، يقول : إنها ظلت مطبوعة ، مدى الحياة ، بطابع الخادمة
هذا ، من طفولتها ، وإنها لم تعرف أبداً كيف تنظف من ضعة منبتها ،
وخسة أصلها .

ويرى هذا المؤرخ أن مدام دي نيان ، لكي تتخلص منها ، زوجها بذلك
الأديب سكارون ، المصاب بالنقرس ، وكان أكبر منها كثيراً في السن ،
بحيث لا يشك من يراها في أنه أبوها . كانت في السابعة عشرة ، لا تمك
دانقاً ، ولا تعرف من دنياها غير الركن الريفى الذى نشأت فيه . قال عنها
زوجها الشيخ إنها حملت إليه ، أولاً عن آخر : « عينين نجلاوين عاصيتين ،
وخصراً جميلاً جداً ، ويدين بضتين ، والكثير من خفة الروح ... »

رأت نفسها ألقيت بعتة في وسط مختلف كل الاختلاف عن الذى
شبت فيه ، فاندججت بسرعة غريبة ، وانسجمت بسهولة مدهشة . وكان
بيت سكارون ملتقى أناس من كل لون : من الأدباء البوهيميين ، ومن
السادة الكبار ، ومن السيدات البارزات ، ومن المحظيات والغانيات ..
ولم تكن نعمة الحديث دائماً بالطاهرة النقية ، ولم يكن مسلك الزوار
بالمسلك الحسن . ولم تلبث الزوجة الشابة أن عرفت كيف تجارى هذا الوسط
الخاص ، دون أن تندفع في تياره ، لكن كذلك دون أن تجرح ضيوف

زوجها بمظهر التحفظ والتحرز ، أو التزمّت والجفوة . وهذه ظاهرة من
لوازم خلقها الثابتة : هذه التقية عرفت كيف تجتاز أشد الأوساط
ريية ودنساً ، وتلامس أشد المواقف حرجاً ورجساً ، وتخرج منها
ولا غبار عليها .

على أنه من المحتمل كل الاحتمال أن ذلك البوهيمي العجوز ،
سكارون ، حاول أن يزج بامرأته الشابة في جو مجتمعه الإباحي . وعلى
أى حال ، وكائنًا ما كان جهده في هذا السبيل ، أو ضعفها تحت تأثير ذلك
الجو الموبوء ، فإن عدداً كبيراً من معاصري مدام دي مانتنون ، كانوا
مقتنعين بأنها لم تقض عشر سنوات من حياتها في صحبة هذه العصابة السوء ،
دون أن يلحقها الضرر . . . عزت إليها أخبار تلك الأيام الفاجرة عشاقاً
عديدين ، من بين أصحاب زوجها ، أمثال : فيلارسو ، وفيلار ، وبوفرون ،
ودالبير . . . ويؤكد لنا « سان سيمون » ، بلا تردد ، أنها كانت خليلة
فيلارسو . ويستشهدون بعبارة مأثورة عن الغانية المشهورة نينون
دي لسنكو : « كان سكارون صديقي . وقد أدخلت امرأته على قلبي بحديثها
مسرات لاعداد لها . وكنت بادىء ذى بدء أراها أبعد ماتسكون عن
الإحساس بالحب . . . والحق أنني لم ألحظ عليها شيئاً . . . ولكنني كثيراً
ما أعرتها غرفة نومي الصفراء : لها ولفيلارسو ! . . . والحق أيضاً أن
فيلارسو كان من جانبه ، على الأقل ، أشد ما يكون هياماً بامرأة صاحبه ،
وظل أمداً طويلاً يلاحقها بهواه ، ويحاصرهما بجواه . . . »
ومما يؤثر أيضاً عن مدموازيل نينون دي لسنكو : « انه تقوى مدام

دى مانتونو فله مرمهرا ضعفاً فى عقلمها ، وقد أردت مفاءها منه ، لكنمها فشى
الله كثيرأ «

كيف إذن يخالجنا الشك فى معين من الفضيلة فى فؤاد مدام دى مانتون
هذه ، بحيث قاومت دوافع الحواس القوية ، ودعوات صاحبها الحارة
جميعاً؟! ربما كان فى وسعنا أن نقول إن الفضل فى هذا كله لا يرجع
للفضيلة . وإن الطبيعة نفسها لعبت دوراً عجيباً فى حياة هذه المرأة العجيبة ..
فالظاهر أن هذه المخلوقة « ذات العينين العاصيتين المتمنعين » ، وذات
« الخصر الجميل جداً » ، كانت أبرد النساء .. فما من رجل ، حتى ولا الملك
نفسه ، استطاع الادعاء بأنه حرّك منها فؤادها ، أو حواسها ...

وننظر كيف كان مسلكها بعد وفاة زوجها . فإن سكارون مات فى
عام ١٦٦٠ ، وأرملته لم تتجاوز الخامسة والعشرين . وكان فى وسعها
الزواج مرة أخرى .. أو ، إذا كانت حقاً لها عاطفة العاشقين ، تلقى بنفسها
فى ساحة المتاع ، على مثال صديقتها ومستشارتها نينون دى لنكلو ...
لا شىء اليوم يحول بينها وبين ذلك . إنها حرة طليقة . وهناك فيلارسو
مقيماً على حبها . فلماذا لا تقبل أن يتخذها خلية سراً ، ولم تكن ربطتها به ،
حتى الآن ، إلا علاقة وصداقة خالصة؟! .. إن زوجها لم يترك لها شيئاً .
وهى فى مركز حرج غير مستقر : إنه الفقر الذى لا يلبث أن يعقبه
البؤس! .. ومع ذلك لم تتحول عن خط سيرها .. فرأينا هذه المرأة
الصالحة تعتزل فى الحال ، وتأوى إلى دير صغير من أديرة الصدقة يسمى
« لايتيت شاريتيه » .

إذن فهذه مدام سكارون ، في الخامسة والعشرين ، في نضرة الحسن ،
على غاية من خفة الروح وخصب الذهن ، تفتح لها الدنيا ذراعها ، لتستقبلها
في عالم المسرات والملذات ، فتأني وتستكبر . . وتنطوي بين جدران دير
الصدقة !؟ تكاد تنزل فيه مجاناً . . قدمت إليها غرفتها فيه عقيلة المارشال
دومون ، بنت عم زوجها سكارون . فعاشت على الإحسان .

وإليك رواية أحد المعاصرين : « إن المارشالة دومون كانت ترسل
إليها حتى الثياب . ولكنها كانت تتحدث إلى كثير من الناس بما تسديه ،
حتى لقد اضطرت الأرملة الشابة ، ذات يوم ، إلى أن ترد إليها عربة يد
بعثت بها إليها محملة بملابس قديمة » . . !

فمن هذا نرى أن مدام سكارون ، على ما كانت فيه من فاقة مدقعة ،
حرصت على كرامة عيشها . فلم ترد أن تكون القريبة الفقيرة ، التي يتشدقون
بإرسال الثياب الخلقية إليها !.. وكان مسلكها ، كامرأة شابة ، مثالياً شريفاً .
لم تكن تطمع من الحياة إلا في عيش متواضع ، لكن كريم . . لذلك قامت
بالمساعي عند الملكة الوالدة ، لإعادة معاش زوجها إليها ، وكان ٥٠٠ فرنك .
لكن الملكة رفعته إلى ٢٠٠٠ دينار (٦٠٠٠ جنيه) : « جزاء وفاقاً ،
لاستقامتها وحسن سيرتها ، وتمهيرها لها واعجاباً بها » .

هذه شهادة رسمية بطيب الأجدوثة : والمسلك القويم الذي اتخذته
أرملة سكارون مبدأ لها . غير أن هذا لم يحل ، فيما بعد ، بين أعدائها وبين
نشر الإشاعات عن أنها طردت من الدير طرداً ، لأن الراهبات ضغن ذرعاً
بهذه النزيلة ، التي ، على ضالة ما تدفعه لهن ، تجتذب عدداً عديداً من الزوار

المترفين والمزوقين ، الذين لا يتفق مظهرهم وجلال الدير المتواضع ..
يأتون إليها من كل صوب وحذب : فتقف المركبات والمحفات ، يتبعها
الغلمان ، وينزل منها أرقش الناس ، وأشدهم أناقة ، والمعهم ثياباً ، وأطيبهم
عطراً .. فأثار هذا الهبوب العصري عاصفة في الدير ، قلبت هدوءه
وسكونه .. فتمنت الراهبات ، في رفق ، رحيل المرأة الوجيعة الفقيرة ،
التي تصطنع مثل هذه الصلات الرنانة .. أما السبب الأول لهذا الانتقال ،
فهو أن مدام سكارون ، وقد صارت ذات معاش ضخم ، رأت أن دير
الصدقة الصغير لم يعد خليقاً بمكاتها ، ولا بالصفوة من الناس الذين
تستقبلهم في صومعتها ...

أجل ، إن معاش ستة آلاف من الجنيهاً كفيلاً بأن يوفر لها عيشاً
رغداً ، في حي باريس أنيق ، على مقربة من معارفها أهل الطبقة الراقية .
لكن أتراها أهرعت إلى ذلك تغتم الفرصة ؟ .. كلا . لقد بدا عليها أنها
تتجنب الحرية وتخشاها . ولو أن امرأة سواها نالها ما نالها من حظ
موفور ، ورزق ميسور ، لأسرعت للانتفاع بذلك كله ، واستخرجت
منه مزايا لا يستهان بها .. أما الأرملة الشابة ، فقد لجأت إلى دير آخر كبير ،
هو دير الأورسلين ، في حي سان چاك . واستمرت تعيش كما عاشت في
الدير السابق ، مقسمة وقتها بين الزيارة والعبادة .. فلعلها كانت يومئذ تعد
نفسها لرسالة تقية عليا ! ، وازدحم شارع سان چان برتل لا آخر له من
العربات الفخمة ، والمحفات المزخرقة ، حاملة إليها أرقى الشخصيات .. فقد
كانت تتردد على صالونات الدوقة دي ريشليو ، والمارشال دالبير .. وعند

هذه الأخيرة تعرفت بالمركية دي مونتسپان .. وهو الحدث العظيم في حياتها ، الذي كان فاتحة حظها المدهش الأعظم .. قال سان سيمون ، الذي يكرهها كراهية التحريم : « إن مسيو ومدام دي مونتسپان كانا لا يفارقان بيت المارشال .. وهناك عرفت مدام دي مونتسپان مدام سكارون ، وشعرت بالميل إليها ... ولم تكن مدام سكارون هناك إلا واقفة دائماً على قدم الاستعداد للخدمة : تؤدى كل شيء : تضع الخشب في المدفأة ، وتقدم الشاي والحلوى ، وتجري لتستفهم عما إذا كانت عربة هذا السيد ، أو محفة تلك السيدة قد عادت .. ونحو ذلك من ألوف المهام الصغيرة .. »

هذا المؤرخ الحقود على مدام دي مانتنون ، الذي يمسخها على هذه الشاكلة ، ويظهرها في مظهر الخادمة ، أغفل أن تلك المرأة كانت تحاول الإرضاء .. وكانت تؤدى ما تؤديه بكرامة ورقة ودمائة ، تشعر صحبها بأنها تعرف ما تفعل ، وأن ذلك يستلزم منهم الشكر و عرفان الجميل ..

و خلاصة القول أننا إذا أردنا أن نمثل مربية الأطفال الموعودة بأعظم عرش في أوروبا ، قلنا إنها كانت في تلك الفترة من حياتها متوسطة في كل شيء : في الجمال ، وفي رجاحة العقل ، وفي الفراسة وصدق الحكم ، وفي الثقافة ، وثقوب الفكر ، ودمائة الطبع ، وفي رقة الحديث ولمعانه ، وفي المرونة والليونة ، والإحاطة الشاملة بمعرفة الناس .. مع شدة الأمانة والاستقامة ، والورع دون هوس ، والتقوى المتزنة ، والطبع الفاتر : طبع امرأة قليلة القلب ، قليلة الحواس ، قليلة الطموح .. في هذه الحقبة من حياتها ، التي يطلق عليها سان سيمون « سني الظلمات » ، لم تكن تعرف شيئاً

من الدس والوقية ، كانت بعيدة عن التهاك على المال ، تعيش عيشاً هادئاً منتظماً . وكأني بها حدثت من رغباتها بحدود معاشها ، الذي يمكنها من العيش الرغد . ومكنتها عنوبة حديثها من الاختلاط بأرقى الطبقات وخيرة من يقدرون مواهبها . أما بعد ذلك ، عند ما وضعت قدمها في الركاب - كما يقولون - إذ أصبحت مربية أولاد الملك من المركيزة دي مونتسپان ، فقد ظهرت على النقيض مما كانت : طاعة ، ظمأى للبال والرتب جميعاً ظلت ثلاث سنوات قانعة بمعاشها السابق ، إلى أن أوصلوه لها ثلاثة أمثاله في ١٦٧٢! . . . وأخيراً ، وبعد عامين ، عند ما وهبها الملك المنحة الموعودة : المئتي ألف فرنك وبضعة الألوف ، تلك المنحة التي مكنتها من شراء ضيعة دي مانتون ، ظهر عليها أنها بلغت من دهرها ما تمت : فهامى ذى ضمنت بسطة العيش في أيام العجز ، وأمنت العوز . . . كتبت إلى أخيها في هذا الصدد : « إنني أفأوض لشراء أرض قدمت ثمناً لها ٢٤٠,٠٠٠ فرنك (نحو عشرة آلاف جنيه) ، فلا تتكلم بهذا الخصوص ، إذ لا تجوز المباهاة قط . . . إن ذلك يجلب النحس . . أو كما يقول الشرقيون : « لا يحسد المال إلا صاحبه ! » . . وداعاً يا أخي العزيز . . أعتقد أننا سنقضى شيخوخة ممتعة ، إن كان في الشيخوخة متاع ! . . » . . .

هذا إذن كل حلها : شيخوخة هادئة ، في دار مريحة ، تكون ما-كها ، تحيط نفسها فيها ببعض الصحاب ، وبعض الكتب المختارة . . ذلك أنها لاتحب الضجيج والعجيج . . ولا الوسوس والهواجس . . زاهدة فيما يحيط بحياة القصر من هرج ومرج . . تعبد الخلوة ، والحياة البسيطة ، بل الحشنة

نوعاً .. (فلسوف تذكر دائماً أنها كانت ريفية) .. تنشد الفراغ ، لتعنى بصحتها ، صحة الجسد وصحة النفس على السواء .. تريد فسحة من الوقت تعالج فيها نفسها ، وتقيا بألف حيلة ، من الأمراض والعلل ، دون كبير ثقة منها بكفاية الأطباء ، لاجئة إلى وصفات الفلاحات !

وأحسب في تاريخ نزيلة الدير هذه ، ومعتنقة التقوى ، صفحة براءة فذة .. فإن هذه المرأة التي زعمها كثيرون نصف وصيفة ، نصف خادمة ، كانت تأخذ دروساً في مدرسة الرذيلة .. فليست صاحبها نينون دى لنكلو إلا من نساء الهوى ، وإن كان هواها ربيعاً .. وإن كانت دروسها خطيرة على تلك الريفية التقية ..

نحن لاندعى أنها اتخذت من صاحبها نينون مثلاً تحتذيه في الإباحة أو الاستهتار .. لكننا نقول إنها تلقنت منها على أية حال تعاليم الغواية والإغراء ، والفوز بقلوب الرجال .. فجعلتها نينون تلمس بأصبعها غرور أبناء آدم ، الذكور ، وحماتهم .. وآتتها من علمها الكثير : عن غضباتهم ، وثوراتهم على النساء ، ثم خضوعهم ، بعد ذلك ، وامتناعهم لمن صاغرين .. ذلك أن يد المرأة الناعمة أشد قوة وفتكاً من مخالب النمر المفترسة ! .. وأن إرادة المرأة القوية أشد فعلاً من كبرياء الرجال وعنادهم ، إذا عرفت كيف تغلفها بالحرير ، أو الصبر الجميل .. وعلمتها ، فيما علمتها ، أن قلوب الرجال ليست حصوناً صعبة الغزو والمنال ! ..

هذه التقية الورعة لم تتورع عن دروس الهوى .. إن في المرأة دائماً غريزتها .. ولها أذنان ، مهما صغرتا ، فسيعرف الشيطان كيف ينفذ من

إحداهما ، إن لم ينفذ من كليهما معاً ! . .

* * *

هذه هي لوحة مدام دي مانتنون ، كما تبدو لنا في اللحظة التي آتاها فيها الحظ ، يسعى إليها خفيفاً سريعاً ، ليحملها ، ويخلق بها إلى مكانة عليّة ، ماجرّوت يوماً على الحلم بها . . كان ذلك الصعود ، في جملة ، من عمل الصدقة ، لكنها صدقة تستند إلى منابع من الذكاء المتوقع النفاذ ، الذي يكاد يرى في فؤاد الغيب ما يعدّ له ! . .

كانت مدام دي مانتنون تلتقي كثيراً مدام دي مونتسپان ، محظية الملك ، عند المارشال دالبير . فراقت لها ، بل حاولت أن تروق . . قد يبدو هذا غريباً من امرأة راضت نفسها على النسك والتقوى . فهي لا يمكن أن تجهل أن المريكزة دي مونتسپان خليّة الملك ، وأنها بهذه الصفة تخون زوجها ، كما يخون الملك زوجته . ومع ذلك راحت تطريها ، وتثنى عليها الخير كله ، لأن تلك « السيدة الجميلة » هي صاحبة الحول والطول عند عشيقها المتوج . تستطيع أن تضر وتنفع . . فأغضت أرملة سكارون عينها ، وسدّت أذنها . . عملت ما تعمله الملكة نفسها : تجاهلت وجود هذه العلاقة الأثيمة . أفلا يعد هذا التجاهل من الإيمان ؟ . . فإن الدين يأمرنا بالغفران للمستضعفين . . كذلك كان من طبع مدام دي مانتنون : أن توفق دائماً بين فضائلها ومصالحها ! . . .

وجاء وقت سألوها فيه أن تتولى تربية بنت غير شرعية للملك ، من المريكزة دي مونتسپان . . فعلوا هذا في رفق ، على يد سيدة تدعى مدام

دوديكور ، من صديقات الطرفين . . فكيف ترضى هذه الورعة الناسكة
أن ترعى في الخفاء وليدة الزنا ؟ . كيف يرضخ ضميرها لهذا العمل الآثم ؟ ..
إن قبولها دور المربية هو اشتراك في فاحشة الزنا المزدوج بين الملك والمركيزة
دى مونتسپان . . لكن ، من جانب آخر ، كيف ترفض خدمة سئلت فيها من
قوم ، فوق أنهم يحبونها ، هم أصحاب الدولة والسلطان ؟ ! لكأننا بها إذ ذاك
هرولت إلى أحد كبار رجال الدين تستشيريه . فوزن الأمور ما لها وما عليها ..
ثم نصحتها بالقبول ، نظراً لما يمكن أن تؤديه للأولاد أولاً ، ثم للعاشقين .
فوظيفتها كمرية ستهىء لها كثيراً لقاء الملك والمركيزة ، لقاء ترفع منه
الكلفة نوعاً . . ولما كانت قديرة على الألفة والإيناس ، فما أسهل ما تجد
لنفسها سيلاً لتنبية المذنبين إلى ذنبهما . . بل ربما استطاعت أن تهديهما
إلى صراط مستقيم ! .. ثم إن مركز الثقة هذا . إلى جانب محظية مسموعة
الرأى ، نافذة الكلمة ، خليق بأن يمكن إنسانة مستقيمة كتوماً مثلها من أن
تعلم أشياء عديدة ، وأن تحصل على نعم وافرة . لهذه الأسباب كلها يحسن بها
ألا ترفض تربية أولاد الملك الحرام .

لكن أرملة سكارون ، الحذرة ، الحصيفة ، أصرت على أن تكلف
هذا التكليف من الملك نفسه . فهي من رعاياه المخلصين ، لاتعصى له أمراً .
فطلب إليها الملك نفسه ذلك ، وقبلت . . كان هذا ، طبعاً ، أدعى إلى
طمأنينتها ، وأمانها ، من أن تكون متعلقة بأهواء المحظية وحدها ، المتغيرة
المتقلبة . فضلاً عن أن المرأة تؤثر دائماً أن تطيع رجلاً ، على أن تطيع
امراًة . . وأخيراً ، فإنها بقبولها مهمتها ، على هذه الصورة ، تميز الملك

لها ، وهو بلا شك ذا كرا شا كر ... وقد بدأ فعلا فوعدها بمكافأة مئة ألف
جنيه عند ما تنجز مهمتها ...

هذه هي الأسباب الكبرى التي جعلت ، على ما يظهر ، مدام دي مانتون
تقبل مهمة المربية .. فإن هذه المرأة التقية أرادت فعلا أن تمس عمره في
المكان الذي شغلته . ولعلها وعساها أن توفق إلى وضع حد لهذه الفضيحة ،
وتتمكن من التفريق بين الخليلين ؟! ولا تغفل أنها ستجد مجالا لإظهار
مواهبها وكفاياتها في التربية والتعليم .

وكذلك استيقظت ، في تلك اللحظة ، غريزتها الأنثوية ، وهبت من
رقادها ، لفكرة قياس نفسها بامرأة سواها ، تحت عيني رجل ، رجل تريد
أن ترضيه .. رجل ولا كل الرجال ، لأنه سيد الرجال ! ..
وسرعان ما هبت في أعماق ضميرها نسمة الارتياح .. وهنأت نفسها
بأنها سوف تفوز به من غريمتها ! ..

ويمكن القول بأنه ، منذ اليوم الأول ، قد بدأت فعلا المبارزة

بينهما ! ..

روى المؤرخون : أن مدام سكارون كانت تسكن ، منذ يولييه ١٦٦٨ ،
 في شارع تروا باقيون ، على خطوتين من دار المارشال دالبير ، حيث لقيت
 المركيزة دى مونتسپان . ولعلها ، يومئذ ، كانت قد تركت دير الأورسلين
 نهائياً ، واتخذت — استعداداً لولادة المركيزة — مسكناً مجاوراً لبيت
 صديقتها ، لتكون على اتصال مستمر بها ، دون أن تثير الفضول .
 على أى حال ، فقد بدأت بذلك مهام وظيفتها الجاحدة : مربية أولاد
 الملك غير الشرعيين ..

وما لبثت أن أدركت أن المهمة لن تكون سهلة . وكان أشد ما يؤلمها
 فيها اضطرارها إلى ألف حيلة وحيلة لتخفي شواغلها الحقيقية عن معارفها .
 عبء باهظ ، ومسئولية خطيرة : أن تربي بنت صاحب الجلالة ، أو إن
 شئت قل بنتاً يتيمة ، مادام قد فرّق بينها وبين أمها ! .. حدثتنا هي نفسها
 عن شدائدها ومتاعبها في ذلك الزمن : « كنت أذهب غالباً على القرمين ، من
 مرضع إلى مرضع ، متنكرة ، حاملة تحت ذراعى الثياب ، واللحم ، وما إلى
 ذلك .. أقضى أحياناً الليل كله عند أحد أولئك الأطفال ، إذ يكون
 مريضاً ، في بيت صغير ، خارج باريس . وأعود إلى بيتي في الصباح ،
 لأدخل من باب خلفي صغير ، وبعد أن أغير ثيابي ، أخرج من الباب
 الكبير ، وأركب عربة للذهاب إلى دار دالبير ، أو ريشليو ، حتى لا يلحظ

معارف شيناً، ولا يشتهوا مجرد اشتباه في أن لي سرّاً أحافظ عليه .. .»

استمر الحال على هذا المنوال إلى صيف ١٦٧٠، حيث أمكن الجمع بين الطفلين الأولين في بيت كبير منعزل، محوط بالحدائق، في آخر شارع فواجيرار. وعندئذ اختفت مدام سكارون عن معارفها، أو كادت! أحدث هذا كله تأثيره المؤلم فيها. فهي تحب الراحة والهدوء. تحلم بالعيش في ركن مريح، بجوار المصطلي، في غرفة مغلقة ...

وهاهم أولاء يضطرونها إلى الجرى هنا وهناك، على القرمين، من مرضع إلى مرضع، تقضى سواد الليل إلى جانب فراش رضيع مريض، وتتخلى، بسبب هذه العناية المأجورة، عن كل صلاتها الجميلة! ..

لكن، لم تكن تلك غاية متاعها وآلامها! .. فقد عيّنوها لتربي بنتاً صغيرة .. وهاهم أولاء، في السنة التالية، يأتون إليها بولد صغير .. وهكذا، وهكذا دواليك، في كل عام تقريباً .. فليس يعزب عن البال أن المركيزة دي مونتسپان أنجبت رسمياً من الملك سبعة أطفال! ..

شواغل تتراكم عند هذه المربية فوق شواغل .. وهذا عندها، وهي المرأة التقية، عار على عار: تتأفف منه نفسها، ويتمرد عليه ضميرها: إنها بدلاً من أن تضع حداً لهذه العلاقة الشائنة، المزدوجة الإثم، قد ساعدتها، وشجعتها، بتواطؤها واشتراكها فيها: ترى كيف تضاعفت ثمراتها! .. فياللعار! .. وباللندامة: أن تكون مشتركة، هكذا، على رغمها، في خطيئة الملك وخليئته! ..

زد على تأنيب ضميرها: ماتلقاه من ويلات المركيزة مونتسپان .. فقد

كانت لها سوررات غضب تحتد فيها على مربية أطفالها ، وتزجرها ، وتغدر بها .. لم تكن تنتظر منها كلمة المعروف ، ولم تكن تلتقي عندها أماناً . وهكذا كانت « أتنائيس الجميلة » تعامل أرملة سكارون كمجرد خادمة ، تعسفها على ما لا عداد له من تفاصيل خدمة الأطفال ، والعناية بهم ، وتربيتهم ، وعلاجهم ، وغذائهم .. وتلومها ، وتتهمها بسرقة قلوب أولادها ! ..

اجتهدت المربية في احتمال هذا كله ، صامته ، صاغرة .. حتى طفح السكيل ، وفرغ الصبر . ففي سبتمبر ١٦٧٤ ، بعد خمس سنوات في هذا السعير ، كتبت إلى الأب جوبلان ، رئيس الدير ، الأمين على سرها ، الذي يتلقى اعترافها : « لا أفهم أن تقضى إرادة الله علىّ بأن تعذبني المريضة دي مونتسبان . فهي لا تعرف ماهية الصداقة ، التي لاغنى لي عنها .. فكأنها لي عدوة كارهة . وهي تحيلني إلى الملك ، بينما تحمل علىّ ، ما طاب لها أن تفعل ، وتضيع علىّ عنده اعتباري . ومركزي منه دقيق حرج ، لا أجرؤ على مخاطبته رأساً ، لأنها لن تغفر لي هذا أبداً .. وعندما أخاطبه لا أستطيع أن أجرحها لديه ، لما أنا مدينة لها به .. وعلى ذلك لا أجد علاجاً لما أعانيه من آلام .. »

هذه الرسالة ، على غرابتها ، وثيقة : نرى من خلالها شيئاً من النضال الناشب ، من المبارزة بين المرأتين ، وتبين أن مدام دي مانتون تحاول اجتذاب خصيمتها ، واتخاذها صديقة لها ، لتحملها شيئاً فشيئاً على تغيير مسلكها . لكن أتنائيس الشائقة حذرت اللعبة بلاريب ، وأوجست خيفة من الشرك المنسوب ، فلم تقع في حبالها .. بل اعترمت العمل على أن تبقى أرملة

سكارون في مكانها، مربية، لا تتعدى وظيفتها، وكانت هذه قد ضجرت من سوء معاملتها، واثمأزت من تكرار ولادة أولاد الحرام، الذين يتساقطون عليها عاماً بعد عام، فهددت باعتزال عملها المضني، الذي لا تلقى عليه حمداً ولا شكوراً.. غير أن المريكيزة التي لم تكن تستطيع الاستغناء عنها «أحالتها إلى الملك». أي أن الملك، بناء على تحريض المريكيزة، خاطب أرملة سكارون، أمراً أمر السيد الذي لا يرد له قول، محملاً إياها أعباء ولد جديد!.. فأطاعت، وقد بلغت روحها التراقي، دون أن تكسب من فؤاد المليك كثيراً ولا قليلاً. والواقع أن لويس الرابع عشر كان قد استمع إلى تنبيهات المريكيزة، فاعتبر المربية مخلوقة عسرة الخلق، «شاذة»، تحسن مع ذلك ملاينتها، نظراً للحاجة إلى خدماتها..

أضنت هذه الحرب مدام دي مانتنون، فاتتهت - بعد شجار أشد ما يكون عنفاً، ظل عالقاً بذهنها إلى آخر العمر - بشكواها إلى الملك. كان ذلك في ٢٦ فبراير ١٦٧٥، يوم «عيد الرماد». فكتبت إلى الأب جوبلان: «وقع بيني وبين المريكيزة دي مونتسپان ما لا تحمد عقباه. وكان الملك شهيداً على ماجرى.. هذه المنازعات المستمرة، إلى جانب متاعب الأطفال المتواصلة، تجعلني في حالة لا أستطيع معها بعد ذلك صبراً، ولا احتمالاً»

وإليك الواقعة: كانت مدام دي مانتنون يوماً وحدها مع المريكيزة دي مونتسپان، عندما نشب بينهما خلاف، تأججت ناره إلى حد لم يسبق استعاره، وإذا بالملك يفاجئهما، فلما رأهما على هذا الهياج، سأل عما جرى.. فقالت مدام دي مانتنون للملك، وهي أثبت ما تكون جناناً:

« إذا سمحتم جلالتم بالانتقال إلى الغرفة المجاورة ، فإنى أتشرف بعرض
جلية الأمر » . فذهب الملك .. وتبعته مدام دى مانتنون . وبقيت المريكزة
وحدها . ولما رأت المريية نفسها وحدها مع الملك ، لم تخف عنه شيئاً :
فرسمت صورة شنيعة لقسوة المريكزة ، وغلظتها .. ولم يكن الملك جاهلاً
ما عليه صاحبه . لكن لما كان مازال هائماً بها ، فقد حاول أن يسرّى
عن مدام دى مانتنون ، ويلطف ما بها ..

وهكذا قررت المريية أن تخاطب الملك .. فعلت ذلك في وضع النهار ،
بين سمع مضطهدتها وبصرها .. لكنها أدركت أن الملك خاضع مطيع
لخليته ، لا يكاد يجروء على أن يقاومها ، أو يعصى لها أمراً . فما أدعى هذا
إلى اليأس ! .. إنها اليوم أبعد مما كانت أبدأً في الفصل بين العشيقين
وهدايتهما سواء السبيل ! .. إذن ، فيم العناد بلا طائل ؟ .. لقد حصلت الآن
على مكافأة جزيلة لخدماتها ، إذ منحها الملك ضيعة دى مانتنون وأراضيها ،
فكفل ذلك لها « الشيخوخة الممتعة » التي طالما تمنتها .. فماذا يعوقها ، إذن ،
عن الاستقالة من مهامها ؟ ..

المفروض عندئذ أن نفوذ الأب جوبلان ، وتأثير عصابة التقاة من
أهل البلاط ، كليهما ، قد أقنعاها بالبقاء في مركزها .. وما دامت لا تستطيع
للمريكزة نفعاً ولا ضرراً ، فلتعض في مخاطبة الملك ! .. لتكن مبعوثة
العناية الإلهية ، ومندوبة عصابة الخير التي يرأسها « بوسويه » ، والتي تحاول
التفرقة بين الملك وخليته ! .. إن لدى مدام دى مانتنون رسالة تؤديها :
هي خلاص الملك . فهل تراها تخون بعثتها ، وتنبذ رسالتها ، وتخب آمال

السماء التي عقدتها عليها؟! .. أمام تلك الحجج لم يسع تلك الورعة الصادقة إلا أن تنحني لهذه المهمة العلوية ، فضلا عما يراود نفسها من رغبة خفية في الفوز على خصيمتها ، والانتقام من غريماتها! ..

كثير من الذين عاجوا تحليل النفسيات التاريخية ، لاموا مدام دي مانتون على اشتراكها في تلك المؤامرة المبيتة ضد امرأة ، مهما قيل فيها ، فهي مدينة لها بكل شيء . ولكن حرام أن تُتهم أرملة سكارون بالغيرة ، أو الختل النسوي ، خبط عشواء ، فإذا كانت قد طوت جوانحها فعلا على إذلال المركيزة العابثة ، فذلك لزعمها أنها تلي واجبها من رد المذنبين إلى حظيرة الكنيسة .. فما كانت عاقبة هذا الدس كله ؟ .. كان من آثاره أن قضى الملك عيد الفصح ، تلك السنة ، في كنيسة فرساي ، وأبعدت المركيزة دي مونتسبان عن البلاط .. وبعد فترة من الزمن سافرت المريية إلى « باريج » ، لتتعهد صحة أكبر أولاد الحرام الذين في رعايتها ، وكان تحت العلاج .. فلما عادت رأت أن المركيزة استردت حظوتها ، إذ لم يقدر الملك على بعدها ، فاستقرت من جديد في القصر ، ولم يعد الملك يفكر في خلاص روحه وجلده من عذاب جهنم .. بل سلم محظيته جلده وروحه ، تفعل بهما ما تشاء .. وعلى ذلك ، كان لا بد من البدء ثانية ، وإعادة غزل النسيج الذي تعقد من جديد ..

عندئذ طفق الفطاء من أهل البلاط يلاحظون ، بعين التطلع ، تغلغل مدام دي مانتون . فقد بدأت عملا من التقرب ، راسمة خطة حرية ، عبأت في سبيل تنفيذها كل ما أوتيت من كنوز الصبر والمرونة ، وقوى الخدق

والتدبير، لتصل إلى الفوز بروح الملك . وبرغم كل ما كانت تصبه عليها
« أتنايس الجميلة » من جام غضبها ، وحقدها ، وتمرمها ، فقد عرفت المربية
الأربية كيف تتمالك نفسها . ومنذئذ لم تعد ثمة مشاهد سخط ويأس ، ولو
ظاهراً . . وراحت تتحدث إلى العاشقين المذنبين في الواجب وفي الدين .
وأقنعتهم ، أو على الأقل أقنعت الملك ، بتجردها من الغاية والغرض في دعوتها
إلى إيثار الرشد على الغي : فهي لا ترمى إلا إلى خيرهما ، وخلصهما ، ووجه
ربك ذي الجلال .. ومهما تكن نقمة المر كيزة ، وثورتها على هذه الموعدة
الحسنة ، التي ستكون عواقبها وبالاً عليها ، فقد كانت مضطرة إلى الاعتراف
بأن مدام دي مانتون تنثر الدر من فيها ، وأنها في الجملة على حق . كذلك
الملك كان مضطراً إلى الاعتراف ، بأنه ، إذ يعاشر محظيته في القصر الذي
تسكنه زوجته الشرعية ، إنما يدوس بقدميه واجباته كسيحي ، ويخالف كل
عرف خلقي ، ويشين مسلكه السياسي ، الذي يتطلب البعد عن المسلك
المفضوح . .

ولم تكن أرملة الشاعر سكارون لتتخذ لهجة الشيخ « المظطم » ،
أو ترتدى مسوح الراهب الأسخمي .. بل كانت تغلف دعوتها بآيات من الرقة
والملق ، حتى لان قلب الملك ، واستمع لها . . . وكان عملها هذا أشبه بنقطة
الماء التي تثقب الحجر ، بعد سنين . . . فقد بذلت في تبشيرها الدقيق الرقيق
فعلا خمس سنوات ، أو ستاً . . ومع هذا كله ، فهما كان من أثر دعوتها عند
الملك ، فقد كان من المحتمل كل الاحتمال ألا يقطع ما بينه وبين المر كيزة
دي مونتسپان ، لولا مأساة السموم التي هزّت كيانه ، وجعلت بلاط فرنسا

مضغة الأفواه .. فقد كان لا بد للملك من برهان دامغ على أن خليلته أرادت أن تسممه ، حتى ينتهي ما بينهما ...

ولم يكن يعز على مدام دي مانتون الوقوف على بعض الاتهامات الشنيعة الموجهة إلى خصيمتها . فما أ كثر اللغط الذي كان يدور حول هذه المخزيات . فلعلها عندئذ ، وهي نهّازة الفرص ، عرفت كيف تصدر حكمها القاسى على غريمتها ، لتردع الملك عنها . وها هي ذى الأوضاع انقلبت ، والأدوار انعكست ، وأصبحت أتنائيس الجميلة ، ترتجف لمراى مربية أولادها ، وتتملق ، وتحاول أن تجرد تلك التى تمقتها ، من صميم فؤادها ، من سلاحها .. وفى تلك الأثناء ، كانت مدام دي مانتون ، اللبقة ، باردة كالعقل ، هادئة كالواجب ، فلم تعارض فى هذه الكوميديا .. كتبت فى ٢٧ مايو ١٦٨١ رسالة إلى المريكز دي مونتشرراى : « ... سرت مع المريكزة دي مونتسپان اليوم بعض الطريق ، أذرنا ملتفة ، وضحكنا عال .. ولسنا ، بهذا ، خيراً مما نحن .. »

فلنتصور إذن هذا المشهد العجب : « السيدة الجميلة » مغلوبة على أمرها ، تتظاهر بتقبيل غريمتها ! .. وهذه مترفعة ، مبتسمة ، تتلذذ برؤية المحظية عند قدميها : فهى تعلم أنها منذ الآن تملك قلب الملك ، وسادت روح السيد ! ..

كيف حدث هذا؟ .. بأى نوع من الاستغواء استطاعت هذه المرأة ،
التي في التاسعة والأربعين من العمر ، والتي تكبر الملك بثلاث سنوات ،
والعاكفة على العبادة والتقوى ، أن تأسر فؤاد هذا الشهواني الجبار ، الذي
كان لويس الرابع عشر؟

إن الأمر ل يبدو عجيباً عجيباً ، ويتناهى في العجب إذا علمنا أن الملك كان
يحس نحوها ، بادئ ذي بدء ، بالنفور .. فقد مثلتها المركيزة دي مونتسبان
لعيني عشيقها في صورة الأرملة الشاذة ، الشرهة ، الشكسة ، التي لا ينقطع
معها نزاع ، ولا يسود معها سلام .. وكانت مدام دي مانتون تعرف فيه
هذا الشعور ، تقرأه في عينيه ، وتراه يتهيب التحدث إليها ، ويهلع من
شدة تقواها ! .. فهي عنده تزعم أن مملكة عظيمة كفرنسا ينبغي أن تحكم
بالقواعد القاسية ، والمبادئ الصارمة ، التي تطبق في دير .. فعمدت إلى
محو هذا الشعور السيء في نفسية الملك من جهتها .. أخرجت من جراب
سحرها فنوناً ترقى الملك بها ! .. فلما رأته أصاخ إليها بسمعه ، شكت إليه
غضبات المركيزة ، وسوءاتها .. وكان نصيبه هو أيضاً من هذه السورات
غير قليل . فهما إذن — الملك والمريية — ضحيتان ، أولى بهما أن يتبادلا
العزاء ، لا الشحنة . وبرعت المريية النابغة في إظهار السماحة نحو تلك التي
تعذبها — وتعذبه ! — فقد كان الملك مازال مشدوداً بجبال الهوى إلى

خليلته، يعرف عيوبها، ولكنه يحب مزاياها. قال يوماً لمدام دي مانتون،
يصبرها على بلواها من غضبات محظيته: « أفلم تلحظي أن عينيها النجلاوين
تترقرقان بالدموع، عندما تسمع بشيء مؤثر كريم؟ .. »

وبالتأكيد كانت المركيزة دي مونتسبان خليقة بأن تبكي إعجاباً . .
لكنها كانت غالباً تبكي من السخط . . فيهتز الملك لغضبها ويرتاع . هو،
الحريص على الهدوء والصفاء، هو الذي يخرج من مكتبه مجهداً مكدوداً
بشواغل الدولة، ومشاكلها المرهقة، ينشد صفو الحياة في خلوة المرأة
الظريفة الحبيبة . . فكان، عوضاً عن ذلك، يجد المرأة الغضوب تتفجر
شرتها، وتستعر هيبتها. فيالتناقض الذي بينها وبين هذه الأرملة الكسيرة،
اللطيفة، الباسمة! . . ولم يكن ذلك دائماً حملاً خفيفاً. كان عليها أن تخفي
ذات مشاعرها، ومتاعها، وتمررها، وقنوطها، ومخاوفها . . وتقابل
الملك بوجه ضاحك مستبشر . . كتبت فيما بعد، إلى مدام دي برينيون
إحدى صاحباتها: « عندما عاد الملك من الصيد، جاء إلى . وغلقت الأبواب،
حتى لا يدخل أحد . هأنذا معه وحدي! . . لا بد من تسرية أحزانه، إذا
كان حزيناً، وتصريف همومه وأكداره . . وهو أحياناً يغلبه الدمع فلا
يتمالك، أو يعتريه سهوم ووجوم، فنلزم الصمت . . . »

وقد يحدث أن يجيء الملك وهو غاضب، فيعنف نجيته ومستشارته،
ويصب على رأسها الملام، ويرفض ما تسأله إياه . . لكنها تلتقي هذا كله
أيضاً، كما لو كان يحاسنها ويدهنها! . . قالت: « إن حياتي كانت أعجوبة،
عندما أذكر أنني ولدت نافذة الصبر، ومع ذلك لم يلاحظ الملك قط شيئاً

من ذلك ، وإن كنت كثيراً ما ضاق صدري ، وهممت بترك كل شيء ..
وأذكر أنني خلقت صريحة ، وكان لا بد لي دائماً من الإخفاء في السنين الأولى
من حظوتي ! .. وكنت أحياناً أغضب إذا ما أبى الملك تلبية ما سألته إياه
لأقاربي وأصدقائي .. لكنني أحمد الله على أنني قضيت ، بعد ذلك ، ستة
وعشرين عاماً ، دون أن أقول كلمة تثير عليّ أقل الكدر . وكنت أحياناً
أضيق ذرعاً ، وأهم بمغادرة البلاط ! .. ولا يعلم إلا الله وحده ما عانيت في
تلك الأزمان ! .. يدخل الملك حجرتي ، فألقاه ضاحكاً ، لا أفكر إلا في
إدخال السرور على فؤاده ، وعزله عن النساء ، وهو ما لم يكن في وسعي ،
لولا أنه كلما دخل عليّ وجدني هاشة باشة . وإلا لراح ينشد مسراته عند
سواي .. ورأيت أن الله جعلني حيث أنا ، لأروح عنه ، وأذهب عنه
الحزن ، وأطهره تطهيراً .. وهذا ما جعلني أصمم على ألا أبدى له كدرى ،
عندما يرفض لي شيئاً ... »

لم يكن عليها أن تسلي الملك ، وتقوى روحه المعنوية ، وتسرى عنه
شواغله العائلية ، أو همومه السياسية ، وهو الذي يؤلمه أشد الألم أقل فشل
في حكمه .. نقول : لم يكن عليها كل ذلك فحسب ، بل ما هو أصعب منه
وأقسى : أن تسره وتروّح عنه .. وما أصعب الترويح عن ملك مكدود مضني
في شؤون داخلية وخارجية كبرى . ما أحوجه إذن إلى ألوان من الحديث
الشائق ، الممتع ، العذب ، الذي يرسمه عقل الأرملة الأريية : مدام دي
مانتون ، وينطقه لسانها ! ..

وهكذا قضت مدام دي مانتون خمساً وثلاثين سنة من عمرها في

إدخال السرور على قلب الملك! .. أما مراقبه فيها ، خاصة ، فهو ما انطبعت عليه من التقوى والصلاح ، ومن الحنان والشفقة .

ولا مرأى في أنها ساعدته على الخروج من الأزمة الروحية التي أصابته على يدي مونتسبان ، ومن سبقها من المحظيات .. أيده بكل قواها ، ليكون في حياته مثلاً كاملاً لرعاياه . وكان ، في تلك الآونة ، ما يزال مزعزعاً مروعاً بما اكتشف من مخازي المركيزة وجرائمها ، تلك التي مثلت أمام عينيه عبقرية الشر .. فعرفت أرملة الشاعر سكارون : كيف تنتهز فرصة هذا الضمير الراح تحت أثقال الندم ، وهذه النفس الحائرة الهائمة ، فتوجه هذا الاستعداد للتوبة في نفسه ، إلى النفور من غريماتها : من المرأة التي جعلتها تشقى ، والتي تريد هي أن تأخذ مكانها ، وتحل محلها ! .. أليس الملك لها صديقاً أشبه ما يكون بالحبيب ؟ .. أليس متعلقاً بها ، لا يكاد يلجأ إلا إليها ، ولا يكاد يشكو إلا لها ، ولا يكاد ينشد الصبر إلا عندها ؟ ... لكنها قلقة بعض الشيء من هذا التقرب الحار إليها .. ولكنها أيضاً تعرف كعادتها أن ذلك فضل الله يؤتية من يشاء ، وتعرف أن واجبها يتفق دائماً مع صالحها ! ...

وكأنته ما كانت هذه المزايا ، والفضائل ، والمواهب ، والمغريات . وكأنتاً ما كان تقدير الملك لمدام دي ماتنون ، فما كان هذا كله ليفسر أو ليبرر عزمه على الاقتران بها . . . فقد سنحت لتلك المرأة اللبقة فرصة خارقة للعادة ، ففي ذات اللحظة التي بلغت فيها ذروة الرضاء العالی ، قضت الملكة نجبها ! ..



أيعود الملك فيتزوج؟ .. ومن؟ ..

ليس ذلك أمراً سهلاً . ففي ذلك العهد ، لم يكن في أوروبا أية أميرة تسمح
سها أو مكانتها بالاقتران بملك فرنسا . فهل يعثرون له على واحدة تجدد له
التجربة الحزينة ، التي قضاها مع زوجته الشرعية؟ .. حقاً إن الملكة ماري
تميزت كانت سيدة ممتازة ، موفورة الصفات ، لكنها أثبتت أنه لا يكفي أن
تكون بنت ملك لتكون جذابة فاتنة . ولويس الرابع عشر لا يريد أن يبدأ
ثانية مثل هذا القران . وهو يقدر أنه ، وقد أعطى التاج ورثة شرعيين ،
وأدى ، إجمالاً ، أداء مقبولاً في مجموعه ، خلال ثلاث وعشرين سنة ، واجباته
كزوج ، أصبح له أخيراً بعض الحق في أن يختار الرفيقة التي تحلو له . . .
فهل يعود فيسقط تحت نير خلية؟ .. إن المركيزة دي مونتسبان أزهدته
من ذلك ، ونفرتة ، مدى الحياة . . فضلاً عن أن مدام دي مانتنون لم تخلق
لدور المحظية ، ولا يمكن أن ترضاه . أما أن تظل مختارته الروحية ، فما
يشير الشبهات ، ولا يكفي النزعات . . إذن فما هو الحل؟ ..

الملك يريد أن يستقر ، قطعاً ، ويريد كذلك أن يتخذ زوجة توافق
مشاربه ، وهو لا يريد أن يتزوج ، حباً لشعبه ، وإشفاقاً على مستقبله . فهو
يرى لنفسه ثلاثة أحفاد ، ويحكم ببعد نظره على أن مولد أمراء من صلبه ،
من زوجة أخرى ، قد يؤدي ، على مرور الأيام ، إلى حروب أهلية . بيد أنه
كذلك لا يستطيع أن يعيش بلا امرأة .

وكانت مدام دي مانتنون تروقه ، وتقع من نفسه . . يفتنه روحها ،
ويشغفه حديثها . . هي ظريفة ، ما في ذلك شك . . وهي في السن نصف ،

لا تكون منها المرأة الولود... فهذه الأسباب كلها، كانت في عيني الملك
امرأة أحلامه!.. لكن، يا له من زواج أبعد ما يكون عن التكافؤ!..
أين الأصل الرفيع، وأين الحسب العالي، وأين الدم الأزرق؟.. إنها لم
تبلغ حتى مبلغ المركيزة دي مونتسپان التي تعد من أهل النبيل!..

وبادرت حاشية لويس الرابع عشر تمثل له بشاعة هذا القران، وأنه
سيكون أضحوكة أوربا!.. وأنه سيكون معرة الدهور!.. وارتدى لوفوا،
وزير حربه، عند قدميه، لينعه عن ارتكاب هذه المخزية، التي تنقض كل
عرف، وتخرج على كافة التقاليد!.. أيذهب الملك الأعظم إلى حد الاعتراف
بأرملة الشاعر سكارون، ملكة على فرنسا؟!

عندئذ اختار الملك حلا وسطاً، فهو بمبدأه يتجنب الضجبات الفارغة..
وعلى ذلك لن يعترف بمدام دي مانتون ملكة على فرنسا، لكن يتزوجها!..
يتزوجها لأنه يحبها، ولا يستطيع الاستغناء عنها... وبهذا يهون، ولو
قليلا، من الهياج والنفور حوله...

إذن فهو يحب الأرملة الصالحة!.. بكل ما في الحب من معان يتطلبها
الرجال في النساء.. ولم يكن بالرجل الذي يعف عن الجمال الجسدي الأثوى..
وهي، وقد سلخت من عمرها تسعاً وأربعين سنة، ما زالت محتفظة ببعض
فضلات من جمال.. وإن «عينها العاصيتين». و«خصرها الجميل جداً»،
الذين ذكرهما زوجها الأول، كانا ما زالوا من خصائصها!.

وهكذا حدث، في منتصف إحدى الليالي، في إحدى قاعات فرساي،
بحضور رئيس أساقفة باريس، «لويير دي لاشيز»، وبوتتان الوصيف
الشيخ، وبعض المقربين: أن عقد قران الملك الأعظم، الذي كان يومئذ

فيصل أوربا ، على أرملة الشاعر سكارون . وأصبحت مدام دي مانتنون ملكة بلا لقب ، ملكة شديدة التقوى ، وحارسة الكنيسة ، وإحدى دعائم الدين . . ولا يلبث البابوات أن يكتبوا إليها : « إلى بنتنا العزيزة في يسوع المسيح ، النبيلة مدام دي مانتنون ... » ، ويمنحوها وسام « الوردة الذهبية » ، الذي يهدى إلى الملكات ! . .

فلنتصور تأثر صاحبتنا الشيخة هذه ، وانفعالها ، إذ رأت نفسها تنشل من أعمق وهدية للخمول والضعفة ، فترفع إلى السماكين منزلاً . . . يا لهذا المصير الذي يحير الأبواب ! . . أى شيء يخبئه الزمان للإنسان ، لأى إنسان ، كائناً من كان ؟ ! أى خفايا وألغاز يتمخض عنها القدر ، بلا انقطاع ، فى كل مكان ؟ ! هذه امرأة كان زوجها الشاعر الوضع مشلولاً طريح الفراش ، تقف على خدمته فتاة أنقذها من ذل حراسة الدجاج فى الريف ، وهامى ذى ، بين غمضة عين وانتباهتها ، أصبحت ملكة فرنسا غير المتوجة ! . سبحانك ربى ، تعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الملك ، إنك على كل شيء قدير ! . .

* * *

اتخذ الملك من هذه الشيخة الصالحة زوجاً له ، ظن أنه وجد فيها شريكة . وكان من مبادئه المقررة شدة الحذر من تدخل النساء فى شؤون الحكم . فعليه ألا يتدخلن فى أمر من أمور الدولة ، ولا حتى فى تعيين أى فرد فيها ، مهما صغر شأنه . وكان للملك فى هذا الصدد رأى جليّ حازم صارم ، أوضحه ببلاغة فى « مفكراته » ، قال : « قلب الأمير يغزى ، كما يغزى ميدان . والعناية الأولى توجه إلى الاستيلاء على جميع الأماكن التى

يمكن بها الوصول إليه . والمرأة اللبقة تحرص على إبعاد كل ما ليس في
مصلحتها . فهي تحيط البعض بالشبهات ، وتكيل التهم للبعض ، وتثير النفور
من البعض الآخر ، لكي تبقى هي نفسها وأصحابها محل الرعاية والإصغاء ،
فإذا لم نأخذ حذرنا من هذه المناورات ، ونقفها عند حدها ، أدى إرضائنا
لهذه المرأة وحدها إلى إغضاب بقية الناس . . وأخيراً نتبين ، إن عاجلاً
وإن آجلاً ، أننا نفقد خيرة خدامنا المخلصين ، أو نفر منكم ، وأننا نهدم
سمعتنا . فالنساء ينجحن في كل ما يعرضن له ، ولا يمكن أن يحمينا أو ينجينا
منهن إلا شيء واحد ، هو : ألا نبيح لهن حرية الكلام في أي شيء ، ما خلا
المسرات الخالصة . . وألا نفتأ نحن أنفسنا من تصديقهن في شيء ما ،
ما دام يتعلق بأعمالنا ، أو بالأشخاص الذين يخدموننا . . .

فمن هذا ترى أن لويس الرابع عشر كان واقفاً لهن بالمرصاد ، حذراً
من مدام دي مانتون حذره من الخليلات اللواتي كن له من قبل . . لكنه
كان واثقاً من أن رفيقته الجديدة هي استثناء نادر في جنسها ، والنادر
لا حكم له . . فقد كانت امرأة حصيفة ، لبقة ، أريية ، ذات روح سياسي . .
امرأة متينة . . وكان الملك يدعوها : « صامية المتانة » ! . .

ومهما يكن رأيه فيها عظيماً ، فقد كان لا يريد أن تتجاوز حد المشورة
في الشؤون المعضلة ، باعتبارها سيدة حكيمة ، غير متحيزة ، ومشبعة
بأطيب النيات ، وأصدق الرغبات . لكن ليس لها أن تحاول التدخل
في المسائل الحكومية . وكانت من ورائها « عصابة التقوى » التي دفعها
وأيدتها ، وربما هي التي قادتها إلى مكاتها ، ترغب لو اتخذت هذه المرأة ،

صنيعتها ، دوراً أشد فعلاً وأبعد أثراً في الشؤون العامة ، خفضت أحياناً لمطالب العصبية ، زعماً منها أن ذلك واجبها ... لكن الملك ، وهو شديد الحساسية في هذه الأمور ، شديد الغيرة على سلطته ، بادر إلى وقفها عند حدها ، بغلظة : « فيم تتدخلين ؟ » .. وكان يتعنت خاصة فيما توصى هي به من تعيينات ، وترقيات .. أو تزكيه من إنعامات ، أو إحسانات .. كان يكفي أن تعلن صراحة ميلها إلى هذا أو ذلك ، ليكون ذلك سبباً كافياً في عيني الملك ، لاستبعاد موضع رجائها ، لافرق في ذلك بين أهلها وأصدقائها المقربين . ولم تكن تغضب من ذلك ، بل تتقبله بصدر رحب ، ودماثة خلق .. وكان الناس جميعاً ، من الأمراء فنازلاً ، يظنون أن لها يداً عند الملك لا ترد ، وأن كلمتها هي السارية .. نوهت بذلك صاحبها مدموازيل دوماًل في « زكرياترا » : « إن بعضهم كان يجيء ليشكرها على قضاء حاجته ، فتلقت إلى وتقول : « لو أنني تدخلت لصالحه لما وفق هذا التوفيق » !

أجل ، « كانوا يظنون أن لها نصيباً في كل شيء » .. وهذا ما يفسر التناقض الذي تخبط فيه معاصروها ، بشأن نفوذها السياسي . وكانت هي لا تنفك تردد أنه ما من تأثير لها ولا نفوذ ، وليس من يصدقها ..

كانوا يؤكدون ، بلا تردد : « إن مصير الدولة يقرر في حجرتها . فيغلق الملك على نفسه حجرته ؟ حتى يحين العشاء .. ويقصده وزير المالية المسيو دي بونشارتران .. بينما تكون مدام دي مانتنون تطرز في ركن ، دون أن تبدو عليها سمات الانتباه إلى ما يجري إلى جانبها .. ولكن عند كل اقتراح من هذا الوزير ، يلتفت الملك نحو مدام دي مانتنون ويسألها : « ماذا ترين

في هذا ياسيدتي؟» .. فتبدى بتواضع رأيها ، وكل ما تقول به يكون ...
ومما لا شك فيه أن أكثر تلك الاقتراحات يكون متعلقاً عادة
بمعاشات ، لا بالسياسة العامة .. فإن الملك الذى يثق باستقامة مدام دى
مانتون وأمانتها ، كان يرى هنا من الطبيعى استشارتها .

على أنهم يدعون أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير .. وكان لها فعلاً
رأى مسموع فى سياسة الملك .. وذلك جائز أيضاً ، وقد ثبت ، فى حوادث
وظروف وملايسات داخلية وخارجية عدة .. فإن من يطمئن إلى أمانة
النصح ، وسلامة الرأى فى صغائر الأمور ، أولى به أن يبادر إلى التزود من
هذا المعين الحكيم فى المهام العظام .. كذلك كانت فيما يختص منها بالمصلحة
العامة ، وازدهار المؤسسات الدينية والمبرات ، عاملاً كريماً خيراً ، إلى
جانب زوجها لويس الرابع عشر .. كانت إلى جانب الملك وزيراً حقيقياً
لشعائر الدين ! ..

ظل الملك وفياً للعهد الذى قطعه على نفسه بأن يبعد محظياته عن
السياسة ، ولم يتردد فى تطبيقه على زوجته المتوجة مارى تيريز ، ثم لم يتردد
فى تطبيقه على زوجته مدام دى مانتون ، وكل ما تمناه من هذه أن تمحضه
النصيحة الصادقة ، لشدة غيرتها ، مثله ، على مصلحة الدولة ، وشدة إخلاصها
لزوجها ومليكتها ، بحيث لا تتردد فى تنبيهه وتحذيره من دسائس وزرائه
ومحاسديه ، ومكائدهم .. وكأنى به محاط من كل جانب بمؤامرة دائمة ، للحيلولة
بين الحقيقة وبين وصولها إلى سمعه وبصره .. وستكون مدام دى مانتون
هى تلك التى تقول الحقيقة ، تلك التى تنفذ نظرتها الثاقبة إلى أعماق القلوب ،

لتكشف عن أكاذيب السدنة والخدام الخائنين .. لهذا اعتاد الملك العمل
عندها ، مع هذا الوزير أو ذاك من وزرائه ..

صور لنا المؤرخ سان سيمون هذا المشهد مراراً وتكراراً ، صوره
تصويراً دقيقاً ، بحيث يخيل إلينا أننا نراه رأى العين : « إلى جانب المدفأة
جلست مدام دي مانتنون في مشكاتها « كوشتها » ، المصنوعة من الدمقس
الأحمر ، خشية تيارات الهواء ، وأمامها منضدة عليها سلة بها أدوات
الحياكة والتطريز .. وتظل هذه الساحرة العجوز تخطط ، كما كانت تفعل في
صغرها ، أو تشد الإبرة على المنسج ، المبسوط أمامها .. وإلى الجانب
الآخر من المصطلي ، جلس الملك في مقعد كبير وثير ، وفي متناوله منضدة
أخرى ، يحيط بها مقعدان صغيران ، أحدهما للوزير الذى يجيء لعمل ،
والآخر لمحافظة أوراقه .. ويتحدث الملك ووزيره ، ويتناقشان ، ويتبادلان
وجهات النظر .. وفي تلك الأثناء ، تكون الساحرة العجوز رابضة في
مكانها ، تخطط .. تخطط بعناية ومثابرة وصرامة ، دون أن ترفع رأسها ، كما
لو كانت واحدة من أولئك الجنيات الثلاث *Les Parques* ، اللواتى كن
ينسجن في النار حياة الرجال .. فكانت كأنها تنسج حياة المملكة ! ..

وتبدو مستغرقة في شغلها اليدوى ، فلا يلوح عليها أنها ترى أو تسمع
بما يدور حولها شيئاً . فى حين أن شيئاً من ذلك لم يفتها ، لا من كلام الوزير
الذى يتحدث إلى مليكه ، ولا من طبعات وجهه المتعددة ، وتعبيرات أساريره
المتغيرة .. والآن ، هاهى ذى تقابل أقوال هذا الوزير بما تعلمه من حقيقة
فكره : ذلك أن لها بوليساً كامل العدة والعدد ، قلم مخبرات ، يحمل إليها
أخفى ما يجرى فى سويداء قلب هذا الشخص أو ذاك .. وكذلك الملك :

لا يكاد الوزير يمضى عنه ، أو يكاد يفرد بزوجه ، حتى يستعرضا ما كان ،
ويستبيناهل خانها الوزير ، أم مكر ، ومكرا ، وكانا هما شر الماكرين ! ..
وتبدى الجنية العجوز لصاحبها رأيها في هذه الكلمة أو تلك مما قد يعثر به
لسان الوزير شاميار ، أو الوزير بونشارتران . . أو تصف تلك الحركة التي
أفلتت منه ، معبرة عن : نفاذ صبره ، أو خيبة أمله ، أو فرحه . . مما تكون
رصدته ، كالشهاب ، من « كوشتها » الحريرية الحمراء ! .. تلك هي بعض
الخدمات المتواصلة السرية ، التي ينتظرها الملك منها . بل كان يقدر أن مجرد
وجودها كاف لبعث خشية في نفوس خدام الدولة هؤلاء ، بحيث ، إذ
يشعرون بأنهم مراقبون مراقبة مزدوجة ، يتهيبون ، ولا يندفعون اندفاعاً
أعمى في تزييف خدمتهم ، وغش دولتهم ، أو خيانة مليكهم . .

وعلى ذلك ظل الملك ممسكا بأعنة وزرائه ، كما يمسك الفارس جواده
باللجام . . وهذا هو تفسير هوايته : « أن يجعلهم يعملون أمامه ، تحت سمع
مدام دى ماتنون وبصرها » . .

وهكذا كانت عليهم رقيباً حسيباً . . .

وكان الملك يسألها قبل هذا كله : ذلك الشيء الذي حاول عبثاً أن يجده
بقرب خليلاته ، ألا وهو الثقة المتبادلة ، والتفانى المطلق . . يريد أن يرى
بقربه قلباً وفيماً يفضى إليه بالشجون ، والشواغل التي يَحْتَقُّ بها . . فعندما
تدلمهم أنباء الحرب ، وعندما تجيئه أخبار مقلقة أو مشؤومة ، وعندما يقتضى
الأمر الرضوخ لجباية ضرائب قاسية جداً يتذمر منها الناس ، لا يعرف
الملك النعاس ، ويصبح فريسة للهموم والغموم . . لكنه بفضل ما أوتى
من سلطان على نفسه ، يتمالك ، ولا يدع أحداً من حوله يرى اضطرابه

وانزعاجه . ويدهش السطحيون من هدوئه وسط هذه التجارب والمحن
القاسية ، يزعمونه جامد الحس . هذا في حين تكتب مدام دي مانتنون إلى
البرنس دز أورسان في بلاط ملك إسبانيا : « إن الملك يكابر صحة وشجاعة ،
وهو في باطنه متألم إلى حد بعيد ، يكتم الألم بين جوانحه ، في الصميم » ..
إنها تعلم ما لا يعلمه سواها . فهذا المستبد العاقى جاءها وليس في قوس
صبره منزع للسهام ، يلقي عندها بأحمال عذابه ، وأثقال كربه ، لا يكاد يخفي
عنها عجزه وخوره . وإذا ما ساءت أحوال المملكة ، بكى أمامها ، وسألها
كلية عزاء .. فياله من مشهد ، ذلك التهاك من الملك الأعظم ، وياله من دور
تقوم به تلك الشيخة التي كانت بالأمس حارسة الدجاج ، لتشد من أزر ملك
فرنسا ، وتعزيه ، وتنفخ من روحها فيه ! ..

هي إذن ملكة فعلية ، بإرادة الملك ، وإرادة الله ..
كانت محوطة بالدسائس . وكان عليها الصراع . إنها ليست لها صفة
رسمية ، وما بلغت منزلتها هذه إلا بهوى ملك ، ولا يمكن أن تبقى فيها إلا
عن ذلك الهوى .. حقيقة أن لويس الرابع عشر لم يكن ملسكاً للأهواء
الطائشة ، لم يكن السريع التأثر ، السهل الانقياد .. لكنه كان أدق ما يكون
حساسية .. ما أسهل ما يستاء ، فإذا صدّ ، فلن يكون لصدّه رد .. ولم تلبث
الملكة الجديدة أن تبينت فيه هذه الخلال . فهو لم يكن يحاجيها أو يماريها ،
أو يخفي عنها صدوفه عن كذا وكذا من تصرفاتها ، أو تأفقه من كذا وكذا
من طلباتها .. وبهذا يضعها عاجلاً في مكانها .

وفضلاً عن أن قلب الملك لم يكن دائماً له أمان ، فقد كانت محوطة بكل
ضروب الأعداء الذين يتربصون بها . وكان أعداؤها بلا مرأى :
المركية دى مونتسبان ، الخليفة الموتورة ، التي بقيت في البلاط ، رغم هجرها ،
وظلت تسكن جناحها في فرساي . وكان كل شيء يخشى من جانب هذه
المرأة الضارية الطموح ، وكانت كل الأسلحة لديها حلالاً ذلالاً ، حتى
السم الزعاف . . . ولم تكن مدام دى مانتون تجهل ما دار في « الفرقة
الطامية » حول جرائم المركية . ولم تكن تجهل أيضاً أن هذه المرأة قوية
بأولادها من الملك . . فربما داعبها الأمل المرجو في الكر على قلب الملك ،
والاستيلاء عليه ، والظفر به ، هي ، الخليفة السابقة ، من دون الخليفة
اللاحقة ! . . أما أرملة الشاعر هذه ، الجنية البارعة ، فكانت من بعد النظر
بحيث غزلت من الفجر غزلها ، ونسجت من الصباح الباكر نسيجها ،
فاستأثرت منذ المهد بقلب أكبر أولاد الملك من المركية ، الدوق دومن . .
وكانت تسميه « دوقها الصغير » ، وفي حسابها أن يكون يوماً المدافع
عنها ، ضد أمه التي حملته وولده . وكان نسيجها محبوباً ، إلى حد أن تليدها
أصبح قرّة عين الملك . . وعقدت بين الولد الحرام ، حبيب الملك ، وبين
مربيته السابقة : معاهدة . . ولا نقول : تواطؤ ، أو مؤامرة .

فكان دوقها الصغير يرد كيد أمه في نحرها ، وكانت عن يده تمسك
بتلابيب الملك . ومع هذا كله لم تكن مطمئنة . ولم تطمئن قط إلا عندما
طردت غريمها من البلاط شر طردة ، أو كما قال سان سيمون الذي لا يبالي :
« طرداً مرذولاً » . . وعنده أن الدوق دومن هو الذي تعجل الأمور ،
وبادر بإخراج أمه من قصر فرساي ، ملقياً بأثاثها في عرض الطريق ! . . .

الملك رجل قوى متين ، فلا يجب المرضى ولا العجزة . في حين كانت
مدام دى ماتنتون ، العليلة على الدوام ، شديدة الشغل بمعالجة حلقها ، وتدليك
مفاصلها ، تتكلم بإسهاب ورضاً عن حقها وأدويتها ، وزيتها الذى تدلك
به أعضائها ، زيت القديس فرانسوا ! .. هذه الصحة السقيمة ، كانت من
أول أسباب الخلاف بين الزوجين ، لاسيما وأن مدام دى ماتنتون لا تكتفى
بأن تكون مريضة ، بل تريد أن يكون كل الناس حولها مرضى ! .. وكان
هذا يغيظ الملك ، ويقلقه ، هو ، الذى لا يطيب له إلا الهواء الطلق ، ولا يحلم
إلا بالصيد والقنص ، والتجول فى الغابات والأحراج ، والسفر والانتقال ،
والحل والترحال .. وكانت امرأته ترتاع من تيارات الهواء . الملك يسافر
والنوافذ كلها مفتوحة ، سواء كان الحر قيظاً ، أو كان البرد زمهرياً ..
أما « ذات العينين العاصيتين » ، فتطلع ، من هذا ، وتضيق به ذرعاً ،
فتحتج برقة صدرها ، وتحصل على إذن بالسفر وحدها ، فى مركبتها ، أو
محفتها .. وسواء كانت فى المركبة أو المحفة ، فهى تغلق النوافذ والأبواب ،
وتحكم إغلاقها كالقمم المختوم .. وحين يريد الملك ، الذى يصحبها على
القدمين فى نزهاتها ، أن يكلمها ، ترفع الزجاج قيراطين ، ثم تنزله فوراً ،
خشية الزكام ! ..

امرأة تقبع فى عقر دارها ، لا تحول ، ولا تصول ، ولا تجول .. امرأة

مسقام (مروضة) ، معلولة ، تؤثر مئة مرة لو لم تتحرك من عشاها ، أو تترك
جانب مدفاتها ، أو تغادر « كوستها » أو سريرها ..

وكانت تتدرع بألف حيلة ووسيلة ، لتحول بين الملك وبين الخروج ،
أو مصاحبة الأميرات إلى مارلى ، أو فونتنبلو ، تتوسل بصنيعتها « فاجون » ،
الطبيب الذى لا يلبث أن يليها ، ويسرد كل ما يخطر وما لا يخطر
بالأوهام ، من علل وسقام .. وكان هذا الطبيب القادر على كل شئ ، يروغ
الملك من هذه الأخطار الوهمية ، أو الحقيقية . فيخضع الملك ، على مضض
من تلك التى تحول دون كل خروج ، ودون مسرات الرحلات والنزهات ،
ولا تحرم بذلك نفسها وحدها ، بل تحرم منها الملك أيضاً ، والحاشية جميعاً ..

امرأة بيت متواضعة ، لاطاقة لها بتكاليف البلاط ، وأعباء القصور .
كانت شقتها فى فرساي ، كما كانت فى سان جرمان ، أو مارلى ، مفتوحة
الأبواب ، مباحة الجناب .. يقدمون إليها الطعام ، ويخلعون ملابسها ،
ويضعونها فى فراشها ، أمام الملك .. وعلى خطوتين منها يجلس هو ووزراؤه ،
يتناقشون فى الأحوال الجارية .. ثم هى تتوسل عبثاً إلى سيدها ومليكتها ،
أن يسمح بوضع حواجز واقية من الشيش أمام النوافذ ، فىأبى حتى لا يشوه
جمال المباني ، وهو من هواة الفن الجميل .. ولا بد أن نعرف كيف تتألم من أجل
الجمال !.. أماهى فتذمر ، وتشكو ، وتكتب بذلك إلى البرنسس دزأورسان :
« ... ليس عنده إلا العظمة ، والفخامة ، والاتساق ، والانسجام .. وعلينا
أن نلقى هبوب الريح من النوافذ والأبواب ، بصدر رجب ، حتى يواجه
بعضها البعض الآخر ، فى اتساق !.. ولنهلك نحن ، ضحية الانسجام ! .. »

ومع ذلك ، كانت تلجأ إلى الراحة في بيوتها الخاصة في فوتنبلو ، أو سان جرمان ، أو سان سير ، غير قصرها في ماتنون . فتهرب من البلاط لتستجم وتستروح ، فلا يلبث الملك أن يفقدها ، ويحن إليها ، ويشكو غيابها . وكانت أشد ما تكون دقة في رعايتها لمعاهدها الخيرية ، تفصل تعليماتها في رسائلها تفصيلاً ، منظمة كل شيء ، حتى أصغر الصغائر ، حتى عدد الكعك والتفاح الذي يقدم للطالبات مع الشاي . . . ولا تنسى ما في تلك الدور من البقر ، والدجاج ، ولا ما ينبغى من العناية بنظافة التليذات ، من تغطية شعرهن ، إلى دعك أجسامهن ، إلى تغيير قصانهن ! . . . وكان الملك ، على حبه التفاصيل ، يكره منها هذا الاهتمام الطائل ، مقدراً أن ثمة شواغل أعظم ، ومهام أكرم ، تُنتظر من ملكة فرنسا .

لم تكن ملكة . . . لم تكن في الحق ملكة باللقب ، ولا بالفعل . كانت رفيقة الملك ، ولم يكن لها قلب ملكة . كانت تعيش في حيز ضيق كرز محدود ، دون ما كانت عليه عندما كانت : مدام سكارون ، أرملة الشاعر المشلول . . . كانت لا تكاد تستطيع السمو على ضعة الأصل ، وخسة النشأة ، ودناءة البيئة التي شبت فيها . . . وكان شر ما ساء الملك منها قلة شعورها بالعظمة الفرنسية ، والكرامة القومية . كانت في أثناء الحرب من شر دعاة التردد والهزيمة ، تنصح بالصلح بأي ثمن . . . لم تكن ذات طموح سياسي : يلهب في الملك العزم والحزم . . . ولو أن لويس الرابع عشر أصغى إليها ، لوقع انحلال فرنسا . . .

والقضية الثانية بينهما كانت : التقوى . هي تريد أن تجعل من الملك

ناسكاً ، وهو لا يأتى أن يكون تقياً ، لكنه يرى أن ملكاً متربعا على عرش
فرنسا لا ينبغي له أن يكون راهباً متوجاً .. ومع ذلك حاول إرضاءها
في هذا قدر طاقته ، يحضر معها بعض أعياد القديسين ، ويركع مصلياً ،
(وله تمثال رائع يمثله جاثياً في كنيسة نوتردام) .. وبلغ منها أنها أرادت
أن تحمله على أن يمنع في البلاط الروايات التمثيلية ، والمراقص ، والمرافع ،
بل والحفلات الموسيقية .. وهنا انفجر فيها ، وهو المهووس بالموسيقى ،
فأعطى الجنيّة العجوز درساً : « اعلمى ، يا سيدتى ، أن الملكة والدتى كانت
شديدة التقوى ، « تناول » كل أسبوع .. ومع ذلك كانت تحضر حفلات
الموسيقى هذه ، ولا ترى فيها ضيراً ولا كفراً »

ومن ماأخذه عليها : أن يرى تلك التى اتخذ منها رفيقة وشريكة ومشيرة ،
لا تعنى أقل عناية بالشئيين اللذين هما هويته العظمى : الجمال ، ومجد الوطن :
أن يجعل فرنسا قوية مجيدة ، أن يبنى ويشيد ، وأن ينشئ الحدائق
والبساتين ، ويرفع القصور ، ويقيم الدور التى تشرف البلاد وتسعدها .. هذا
هو وحده الذى عاش من أجله ، بينا يطيب لامرأته القول بأن جمال
المنشآت لا يعنىها فى شئ ، بل هى لا تعيره التفاتة ! .. أية خيبة أمل أقسى ،
لهذا العاشق العظيم ، من أن يجد تلك التى أحبها لا تشاركه ذوقه ، ومزاجه ،
وهواياته ، وغرامياته ؟ ! . أليس هذا مما يصدع صداقتهما ، ويزرع الثقة
المتبادلة بينهما ؟ .. زد على هذا كله ألوف الوعكات التى تجلبها الشيخوخة ،
والاجتكاكات التى لا مفر منها فى أى عيش مشترك ، مما جرد الملك من
جميل أوهامه ، وأبعد عنه سعيد أحلامه ! .

أخيراً ، ضاق صدر الزوجين الشيخين ، كليهما ، من وثاقهما .. وكادت مدام دي مانتنون تزهق روحها خلال مرض لويس الأخير .. لم تعد ترغب في غير الذهاب لتدفن نفسها حية بين جوانب معهدها الخيري بسان سير ، وتستعد لسلام الروح في افتراقها عن هذا العالم .. وكانت رسائلها تفضح ، من زمن ، نفورها وضيقتها بحياة القصر ، بل ما هو أخطر من ذلك : فتورها إزاء الملك ، وانفضاضها عنه ..

ولم يكن هو أيضاً ليخفي زهده فيها . ولما كان على فراش الموت ، نطق مودعاً رفيقته العجوز بهذه الكلمات : « لقد أحبتك دائماً ، وكرمتك » ... كأن ذلك كان شيئاً خامرها الشك فيه .. والحقيقة أنه مرت بهما سنوات لم يكونا فيها متحابين ، لا يكاد يتحمل أحدهما الآخر .

كانت حياة لويس الغرامية قد ختمت من زمن طويل . وربما كان قد ودع الحب بوداع لا قالير ، إن لم يكن بوداع ماري مانشيني ! . حبه العذرى الأول تحول إلى هوى شهواني مع المركيزة دي موتسپان ، ثم إلى صداقة خالصة مع مدام دي مانتنون .. وقد أخلت به هذه الصداقة نفسها . ولعله حين مات ، كان قد تجرد تماماً من كل المودّات والعلائق البشرية . صفوة القول أن غرامياته كلها خيبت أمله ، كما خيبت أمل خليلاته .

وكأنى بهن عوقبن جميعاً لأنهن أحببته ! .. يا لخاتمة حياتهن ، أولئك
التعسات العاثرات ! ..

مارى مانشيني : أصيبت بلوثة من الجنون ، تتجول فى أوربا ،
لتعرض خبلها الشريد ، حتى حبسها زوجها فى دير !

لويز دى لا فالير : بعد استشهاد عشر سنوات ، اندفنت حية فى غياهب
دير الكرملين الموحشة الصارمة ! ..

المركيزة دى مونتسبان : كسيرة ، ذليلة ، تجر أذيال يأسها وبؤسها ،
وتموت محوطة بأشباح جرائمها المروعة ، وهى ترتجف خوفاً من
عذاب جهنم ! ..

مدام دى مانتنون : أضنتها خمس وثلاثون سنة فى تجلد وتعلل ، فلم
تلق عن كاهلها حملها ، إلا لتقضى نجبها ! ..

دون چوان : زهق ، واختق بكل هذه الشدائد والمكائد ! .. فدار
دورة حزينه حول نفسه ، وقد تبلد حسه ، يرى ما بذر من نكد ويأس فى
النفوس ، وما حصد من هم وعبوس ، ثم هو بعد هذا لا يشعر إلا بقلب
فارغ ترخ ، كأن لم يمر على شغافه حب ولا فرح ! ..

أليس هذا هو عدل الله ، وقصاصه لهن ، وجزاءه له ؟ ..

ليس لنا أن نحول الإنسان الذى ميزه القدر ، عن طريقه .. وكذلك
هو ، يلقى آثامه ، لو حاد قليلا عن سواء السبيل ...

على أن هذه الأخطاء لم تكن عند الملك إلا نافلة عابرة .. كانت
برامياته البشرية تخذل دائماً ، فى فؤاده ، وتهزم أمام الحب الأعظم :

مب المجر .. لم يكن عنده لشيء غير الدولة كيان أو وجود .. أو كما كان
يقول : « المصلحة العامة هي التي خلقنا من أجلها وحدها » : أي مملكته ،
ورخاؤها ، وعظمتها ..

فيمكننا أن نؤكد ، إجمالاً ، أن لويس الرابع عشر لم يجب أبداً إلا
بلاده . وأنه فضل بلاده على كل النساء اللواتي من لحم ودم .. واختارها ،
من دونهن ، عروساً ! ..

على أي حال ، فهو لم يفكر ، حتى ساعته الأخيرة ، إلا في الدولة :
خدمها إلى النهاية ، حتى على فراش احتضاره ، مهموماً ، قبلما يصعد النفس
الأخير ، بأن يكفل لمملكته سلاماً دينياً ، ويحنبها اضطرابات الأقلية ...
وهو ، بعد إذ أتم تسوية هذه المهام العليا ، اتجه إلى الله ... دون أدنى
مخافة ، ودون أدنى طنطنة ، اتجاه المرء الواثق من طمأنينة القلب ، وراحة
الضمير ، واطمئنان الملك ، الذي ، من خلال الأخطار والسقطات ، لم يرد
إلا خير شعبه .. وقد بكى هذا الملك الأعظم : لأنه لم يعرف كيف يكون
المثل الكامل : الذي صورته الخلاق الأعظم ...

والآن ، وقد قوّست السنون عوده ، ألقى عنه حمله الذي أنقض ظهره
ولم يعد يؤمل إلا في الراحة بعد ما أدى مهمته .. ولا نزاع في أنه ما من ملك
بين ملوك فرنسا قد أحب صناعته مثله ، أو انصرف إليها بمجامع قلبه ، على
نحوه .. بحيث لم يكذب هذا العاشق العظيم لبلاده عند ما كتب في مفكراته
هذه السطور ، التي هي بمثابة وصية الرجل الصب :

« إذا حدث أن سقطنا ، على رغمتنا ، في وهاد هذه الضلالات

(ضلالات الحب !) ، فينبغي لنا ، على الأقل ، لكي نخفف من العاقبة ،
أن نرعى الحيطة والحذر في شئتين : أولها : ألا يكون الوقت الذي نعطيه
لغرامنا على حساب أعمالنا ، فيعطلها ويلحق الضرر بنا . وثانيها : أدق منالا ،
وأصعب معالجة واحتمالا ، وهو : إذا أسلمنا قلوبنا ، فعلينا أن نظل مالكين
تماماً قياد عقولنا ... »

* * *

حقاً ، إن هذا الملك لم يكن دائماً يتبع كلام ربه .. وكان أول من يتهم
بذلك نفسه .. لكنه عمل دائماً ، وعاش ، رجلاً شريفاً ، بل ملكاً
شريفاً .. أدى واجبه أمام التاريخ ، فصار الملك الأعظم ، وصار عصره
العصر الأعظم ...

ولقد مات فيصل أوربا هذا بطلاً ، بعد ما عاش للنساء دهرأ ...
ولقد أحب وطنه فوق كل حب ، فمات قديساً ...



15643204
013202200

فهرس

الكتاب الأول مدرسة الحب والسياسة

| صفحة | |
|------|-------------------------------|
| ٥ | ١ — كان حبه عذرياً .. |
| ١٦ | ٢ — كان حبا مادياً .. |
| ٢١ | ٣ — في مدرسة السياسة .. |
| ٣٧ | ٤ — في مدرسة الحب الثانوية .. |
| ٥٠ | ٥ — في مدرسة الحب العليا .. |
| ٧٢ | ٦ — مأساة السعوم .. |

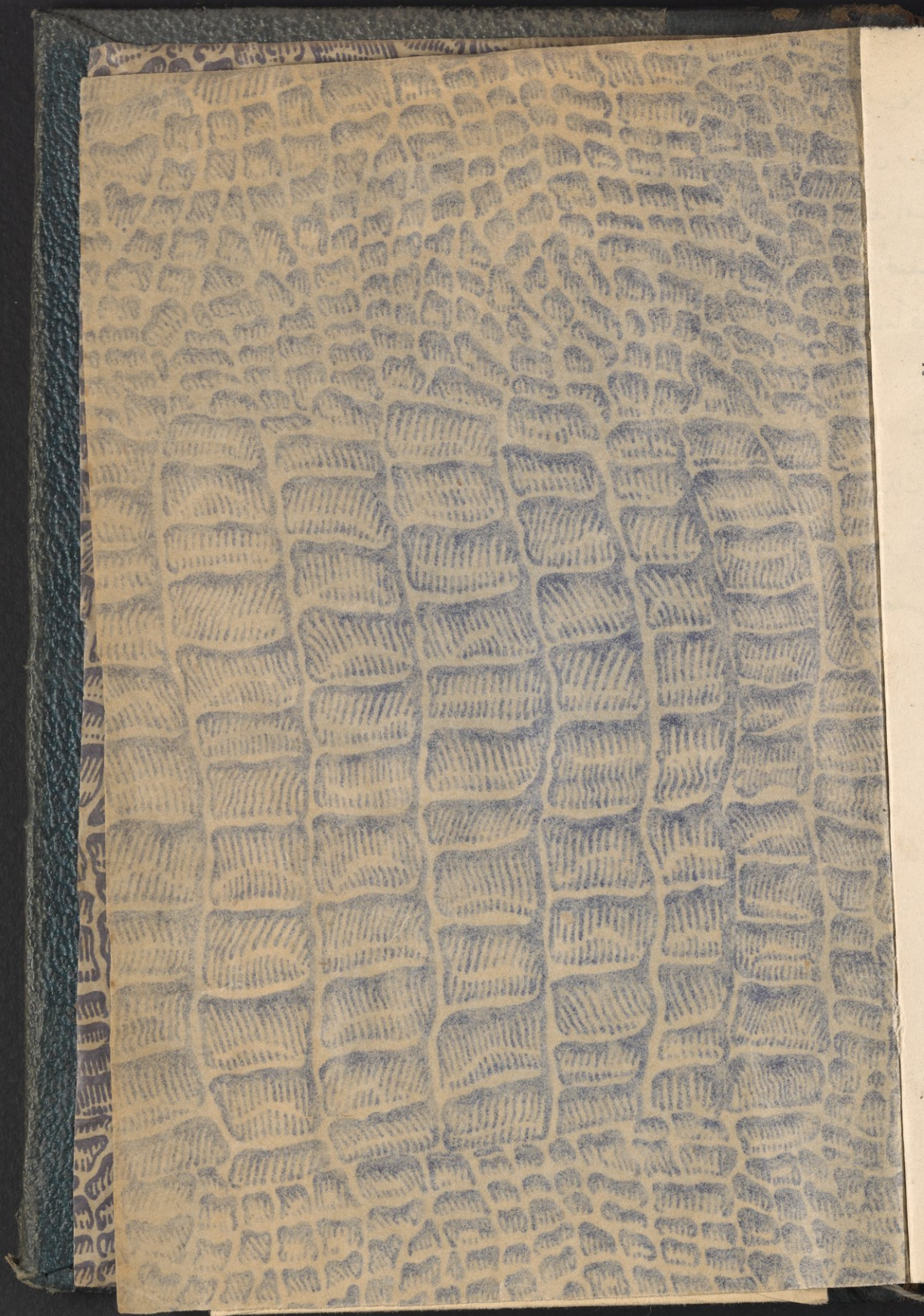
الكتاب الثاني مدرسة الحب والحكم

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٨١ | ٧ — حرب بين امرأتين .. |
| ٩٤ | ٨ — المريية تفوز على السيدة .. |
| ١٠٢ | ٩ — الرجل رجل ولو كان ملكاً .. |
| ١١٦ | ١٠ — الحب بين الجمال والمجد .. |
| ١٢٠ | ١١ — نزاع العقل والقلب على العرش .. |

شركة المطبوعات
مصر

صندوق بوشته ٤ شبراخيت - تليفون ٥٨١٤٩

حب
يقو
ور
با
ه



JC - LIBRARY

DATE D

DC
129
M8



1 0 0 0 0 1 0 5 1 9 0

DC

129

M8